٣

سلسلة

رحلة أسرار

أبي حامد الغَزَّالي

تأليف :

حُجَّة الإسلام بركة الأنام الإمام

أبي حامد الغزَّالي

تحقيق وتقديم :

محمد مصطفى الساكت



دار زحمة كتاب للثقافة والنشر



اسم الكتاب: رحلة أسرار حجة الإسلام أبي حامد الغزَّالي – ج ٣

اسم المؤلف: أبي حامد الغزَّالي

تحقيق وتقديم: محمد مصطفى الساكت

رقم الإيداع: 3819/ 2022

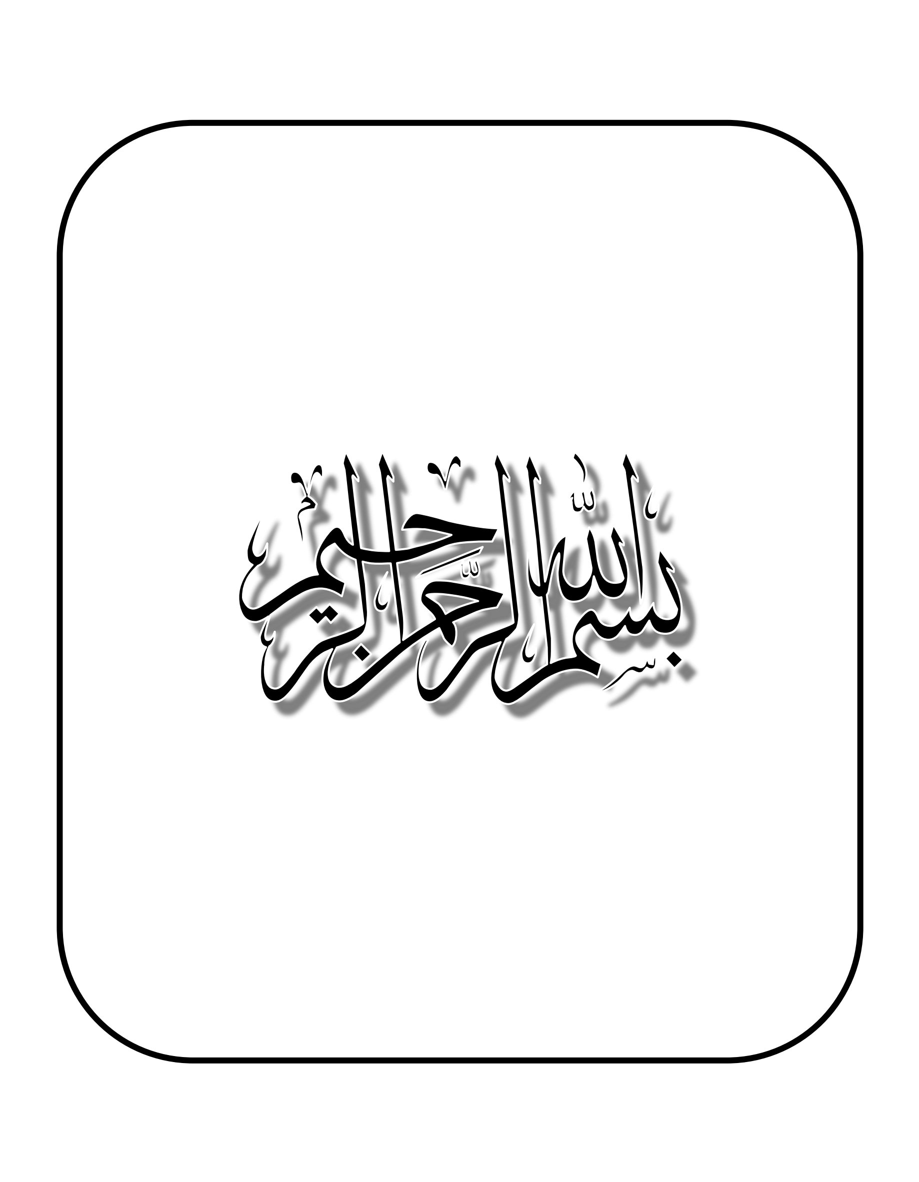
الترقيم الدولي: 978-977-835-289-4

العنوان: ١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

الفيسبوك: دار زحمة كتاب للنشر

التليفون: ٠٠٢٠١٢٠٥١٠٠٥٩٦ / ٠٠٢٠١١٠٠٦٦٢٥٩٥

البريد الإليكتروني: za7ma.kotab@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بعد الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه ومَن والاه.

فبعد أن جمعتُ بين رسالتي (أيها الولد) و(كيمياء السعادة) في الجزء الأول، وبين رسالتي (بداية الهداية) و(القواعد العشرة) في الجزء الثاني، أقدمُ لكم الجزء الثالث من هذه السلسلة المباركة، وهي عبارة عن الرسالة الخامسة (الحكمة في مخلوقات الله ﷻ)، وهي رسالة تأخذك إلى عالَمٍ آخر في مخلوقات الله البريَّة والبَحْرية والطيور، عالَمٌ يُدْهِشُ العقول، وما به من دقائق أدهشتْ علماء الغرب في ثلاثينيات القرن الماضي وأربعينياته، رغم أن الإمام الغزَّالي رضي الله عنه قد سبقهم منذ ألف سنة أو يزيد قليلًا.

ثم ذيَّلتُها بالرسالة السادسة والأخيرة (قواعد العقائد في التوحيد)، حيث أشار عليَّ شيخي القادريُّ [١] أن أجعل لهذه الرسالة تحديدًا موقعًا في هذه السلسلة الغزَّالية، وذلك لأنها تقرير بسيط للغاية وسهلة وموجزة لعقيدة جمهور المسلمين السواد الأعظم: أهل السُّنة والجماعة [٢].

---

(١) تقدَّمَ تعريفه في مقدمة الجزء الأول من السلسلة.

(٢) إذا أُطْلِقَ مصطلح (أهل السُّنة والجماعة) ، فالمراد بهم: الأشاعرة والماتُريدية.

فجعلتُ موقعها بعد رسالة (الحكمة في مخلوقات الله ﷻ) لسببٍ، وهو أن القارئ الكريم بعد أن يغوص في مخلوقات الله وعجائبها وأسرارها وغرائبها وأنوار باريها ﷻ، فإنه يقرأ مخلص عقيدة المسلمين الصحيحة في الله ﷻ التي استقر العلماء والفقهاء والأولياء والأصفياء والحكماء عليها بعد نظرهم وتأملهم في كتاب الله المسطور (القرءان الكريم) وكتاب الله المنظور (الكون وما يحتوي عليه من مخلوقات الله وعجائبها وأسرارها وأنوارها وغرائبها).

ومما قمتُ به في عمل التحقيق:

١- تخريج الآيات القرءانية.
٢- تخريج الأحاديث النبوية.
٣- شرح الكلمات المُبهَمة التي قد يخفى معناها على القارئ.
٤- ضبط بعض الكلمات بالتشكيل حتى لا يُفْهَم غير مرادها.
٥- التعليق على بعض الجمل التي قد تشكل على القارئ.

وفيما يتعلق بتحقيق رسالة (الحكمة في مخلوقات الله ﷻ)، قمتُ بمقابلة هذه النسخة على طبعة قديمة طُبِعَتْ بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر - لصاحبها محمد إسماعيل، الطبعة الثانية لسنة ١٩٠٨م، واعتنى بتصحيحها السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي.

وأما تحقيق رسالة (قواعد العقائد في التوحيد)، قمتُ بمقابلتها على نسخة قديمة من طبعة البابي الحلبي (وبحاشيته: تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، ويذيله: المُغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار) من الفصل

الأول من كتاب (قواعد العقائد) المذكور في كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزَّالي ﷺ، وقد سَمَّاه باسم: ترجمة عقيدة أهل السُّنة، وذلك لأن هذه الرسالة هي التي استقر عليها الغزَّاليُّ أثناء تأليف الإحياء، ولا يوجد اختلاف بينها وبين رسالة (قواعد العقائد) المستقلة؛ فالاختلاف بينهما شكليٌّ فقط وتغيير في بعض الكلمات، وليس في الجوهر.

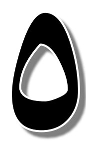
محمد مصطفى الساكت

الإسكندرية في ١٥ ديسمبر ٢٠٢١م

Email: muhammadalsaket89@gmail.com



■■ الرحلة ٥ ■■



الحكمة في مخلوقات الله عز وجل

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(خطبة الرسالة)

الحمد لله الذي جعل نعمته في رياض جنان المقربين، وخصَّ بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين، وجعل التفكر في مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين، استدلوا عليه سبحانه بصنعته فعلموه، وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحدوه، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه، فهو القيم بالقسط في جميع الأحوال، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال، فعلموا أنه الحليم القادر العليم، كما قال في كتابه الكريم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾ [1]. والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين، وشفيع المذنبين محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وشرف وكرم إلى يوم

---

(1) سورة آل عمران: ١٨

الدين. أما بعد، يا أخي وفقك الله توفيق العارفين، وجمع لك خير الدنيا والدين، إنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه والتعظيم له في مخلوقاته والتفكر في عجائب مصنوعاته، وفَهم الحكمة في أنواع مبتدعاته، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين، وفيه تفاوت درجات المتقين، وضعتُ هذا الكتاب مُنبِّهًا لعقول أرباب الألباب بتعريف وجوه من الحِكَمِ والنِعَمِ التي يشير إليها معظم آي الكتاب؛ فإن الله تعالى خلق العقول، وكَمَّلَ هداها بالوحي، وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته، والتفكر والاعتبار مما أودعه من العجائب في مصنوعاته، لقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1]، وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾[2] . إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي بفَهمها والترقي في اختلاف معانيها تَعْظُمُ المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة، والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة. وقد بوَّبته أبوابًا يشتمل كل باب على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخلق، وذلك حسب ما تنبهتْ له عقولنا فيما أشرنا إليه، مع أنه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى، وما وضع من الحِكَمِ في مخلوقٍ واحدٍ من مخلوقاته لعجزوا عن ذلك، وما أدركته الخلائق من ذلك ما وهب الله سبحانه لكل منهم وما سبق له من ربه سبحانه، والله المسئول أن ينفعنا به برحمته وجوده.

❖❖❖

(1) سورة يونس: ١٠١

(2) سورة الأنبياء: ٣٠

باب التفكر في خلق السماء وفي هذا العالم

قال الله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [١]، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [٢].

اعلم رحمك الله إذا تأملت هذا العالم بفكرك، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يُحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منصوبة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء من ذلك مُعَدٌّ مُهيأ لشأنه، والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه، فضروب النبات لمآربه، وأصناف الحيوانات مصروفة في مصالحه، فخلق سبحانه السماءَ وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار، وتقوية لها، ولو كانت أشعةً أو أنوارًا لأضَّرتْ الناظرُ إليها؛ فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار، وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيمًا وراحةً، لا سيما إذا انفطرت نجومها، وظهر نور قمرها، والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة ما يجد الناظر إليه به راحةً وانشراحًا، لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكره ملَّه، وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والانشراح، بخلاف النظر إلى السماء وزينتها، فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم، يلجئون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء. وقد قالت الحكماء: (يحذوك عندك من الراحة والنعيم في دارك بمقدار ما عندك فيها من السماء، وفيها أنها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها، وبحركتها تسير

---

(١) سورة ق: ٦

(٢) سورة الطلاق: ١٢

الكواكب فيهتدي بها أهل الآفاق، وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق، ولا توجد مجرَّة ولا مقبلة صورة نور). وقيل: إنها أنجم صغار متكاثفة مجتمعة يهتدي بها على السير مَنْ ضَلَّ ويتحير في أي جهة كان فيقصدها، وقيل: إنها المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ۝٧﴾ [1]. قيل: الحبك: الطرق، وقيل: ذات الزينة فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعته محكمة صمدية تدل على سعة علم باريها، وأمور ترتيبها، كما تدل على إرادة منشئها. فسبحان القادر العالم المريد. وقيل: في النظر إلى السماء عشر فوائد: تنقص الهم، وتقلل الوسواس، وتزيل وهم الخوف، وتذكر بالله، وتنشر في القلب التعظيم لله، وتزيل الفكر الرديئة، وتنفع لمرض السوداء، وتسلي المشتاق، وتؤنس المحبين، وهي قبلة دعاء الداعين.



---

[1] سورة الذاريات: ٧

باب في حكمة الشمس

قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[1].

اعلم أن الله سبحانه خلق الشمس لأمور لا يستكمل علمها إلا الله وحده، فالذي ظهر من حكمته فيها أن جعل حركتها لإقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض، ولولا ذلك لبَطَلَ أمرُ الدينِ، أو لولاه كيف كان يكون الناس يسعون في معايشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته، ولولا ضياء نورها ما انتفع بالأبصار ولم تظهر الألوان. وتأمل غروبها وغيبتها عمن طلعت عليهم وما في ذلك من الحكمة، ولولاه لم يكن للخلق هدوء ولا قرار، مع شدة حاجتهم إلى الهدوء وراحة أبدانهم وخمود حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم طعامهم وتفنيد الغذاء، ثم كان الحرص لحملهم على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته في أبدانهم، فإن أكثر الحيوانات لو لا دخول الليل ما هدأوا ولا قروا من حرصهم على نيل ما ينتفعون به، ثم كانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من الحيوانات والنباتات، فهي بطلوعها في وقت، وغروبها في وقتٍ في النور بمنزلة سراج لأهل بيت يُستضاء به وقتًا، ويغيب وقتًا ليهتدوا ويقروا، وهي في حرها بمنزلة نار يطبخ بها أهل الدار حتى إذا كمل طبيخهم واستغنوا عنها، أخذها من جاورهم، وهو يحتاج إليها، فينتفع حتى إذا قضى حاجته، سلمها لآخرين، فهي أبدًا منصرفة في منافع أهل الأرض بتضاد النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظافرين على ما فيه صلاح

---

[1] سورة نوح: ١٦

العالم وقوامه، وإلى هذه القضية الإشارة بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [1]. ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول، فيستقيم أمر النبات والحيوان، ثم انظر إلى مسيرها في فلكها في مدة سنة، وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سخر لها بتقدير خالقها، فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار، ولما عرفتَ المواقيت. ولو انطبق الظلام على الدوام، لكان فيه الهلاك لجميع الخلق، فانظر كيف جعل الله الليل سكنًا ولباسًا والنهار معاشًا، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص. وانظر إلى إمالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء، فإذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء. وإذا استوت وسط السماء اشتد القيظ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان، فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان بإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة.

وأما ما في ذلك من المصلحة، ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيه مواد الثمار، ويستكشف الهواء، فينشأ منه السحاب والمطر، وتشتد أبدان الحيوان، وتقوى أفعال الطبيعة. وفي الربيع تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات بإذن الله وينور الشجر، وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل. وفي الصيف يحْمد الهواء فينضج الثمار، وتحل فضول الأبدان، ويجف وجه الأرض، فتتهيأ لما يصلح لذلك من الأعمال. وفي الخريف يصفو الهواء فترتفع الأمراض، ويمتد الليل فيعمل فيه بعض الأعمال، وتحسن فيه الزراعة، وكل ذلك يأتي على تدريج وبقدر، حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة إلى غير ذلك مما يطول لو ذُكِرَ. فهذا مما يدلك

---

(١) سورة القصص: ٧١

على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه. ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج لإقامة دور السنة، وهذا الدور هو الذي يجمع الأزمنة الأربعة: الشتاء، والصيف، والربيع، والخريف، وتسير فيها على التمام. وفي القدر من دوران الشمس يدرك الغلات والثمار وتنتهي غاياتها، ثم تعود فتستأنف وقت السير، وبمسيرها تكمل السنة ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم العليم.

تأمل إشراق الشمس على العالم، كيف دبره تبارك وتعالى، فإنها لو بزغت في موضع واحد لها لا تعدوه، لما وصل شعاعها إلا إلى جهة واحدة وخلت عنها جميع الجهات، فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها، فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول النهار من المشرق، فيعم شروقها ما يقابلها من جهة المغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب على ما استتر عنها أول النهار، فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها. ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار كيف وقتهما سبحانه على ما فيه صلاح العالم، فصارا بمقدارٍ لو تجاوزاه لأضرا بكل ما على وجه الأرض من حيوانٍ ونباتٍ. أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر ما دام يجد ضوء النهار، وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي، فيؤول أمرها إلى تلفها. وأما النبات فتدوم عليه حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق. وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضا لكان معوقًا لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش، وتجمد الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد كالذي يحدث على النبات، إذا كان الموضع لا تقع الشمس عليه.

۞۞۞

باب في حكمة خلق القمر والكواكب

قال الله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ (١).

اعلم وفقك الله، أن الله ﷻ لما جعل الليل لبرد الهواء وهدوء الحيوان وسكونه، فلم يجعله سبحانه ظلمة داجية لا ضياء فيها البتة، فكان لا يمكن أن يعمل عملًا فيه. وربما احتاجَ الناسُ إلى بعض أعمالهم في الليل: إما لضرورة أو لضيق وقت عليهم من النهار. وقد يقع ذلك لشدة حرارة أو لغيره من الأسباب، فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما نحتاج إليه في المعونة على ذلك، فجعل طلوعه في بعض الليالي، وينقص نوره عن نور الشمس وحرها لئلا ينشط الناس في العمل نشاطهم في النهار فينعدم ما به يتمتعون من الهدوء والقرار فيضر ذلك بهم. وجعل في الكواكب جزء من النور يستعان به، إذا لم يكن ضوء القمر، وجعل في الكواكب زينة السماء وأُنْسًا وانشراحًا لأهل الأرض شيئًا. فانظر ما ألطف هذا التدبير، وجعل الظلمة دولة ومدة للحاجة إليها. وجعل خلالها شيء من النور ليكمل به ما احتيج إليه.

ثم في القمر علم الشهور والسنين وهو صلاح ونعمة من الله، ثم في النجوم مآرب أخرى، فإن فيها دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة والغراسة والاهتداء بها في السفر في البر والبحر، وأشياء مما يحدث من

(١) سورة الفرقان: ٦١

الأنواء والحر والبرد. وبها يهتدي السيَّارون في ظلمة الليل وتقطع القفار المُوحِشة واللجج الهائلة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [١]. مع ما في ترددها في السماء مقبلة، ومدبرة، ومشرقة، ومغربة، من البهجة والنضارة. وفي تصريف القمر خاصة في استهلاله، ومحاقه، وزيادته، ونقصانه، واستنارته، وكسوفه، كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصرف لإصلاح العالم.

ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب في كل يوم وليلة دورانًا سريعًا، وسيرها معلوم مشاهد، فإنا نشاهدها طالعة وغاربة، ولولا سرعة سيرها، لما قطعت هذه المسافة البعيدة في أربعة وعشرين ساعة. فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها حتى خَفِيَ عنا شدة مسيرها في فلكها، لكانت تختطف بتوهجها لسرعة حركتها كالذي يحدث أحيانًا من البروق، إذا توالت في الجو. فانظر لطف الباري سبحانه في تقدير سيرها في البعد البعيد؛ لكيلا يحدث من سيرها حادث لا يُحْتَمَلُ، فهي مقدرة في جميع الأحوال على قدر الحاجة. وانظر في هذه التي تظهر في بعض السنة، وتحتجب في بعضها، مثل: الثريا والجوزاء والشعرى، فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت واحد، لم يكن لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها، فكان في طلوع بعضها في وقت دون الآخر ما يدل على ما ينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحهم. ولذلك؛ جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب من المصلحة؛ فإنها بمنزلة الإعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر فإنها لا تغيب ولا تتوارى.

---

(١) سورة الأنعام: ٩٧

ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقلات المتنقلة منها، ومصيرها في كل واحد من البروج، كما يستدل على أشياء تحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر في منازلهما. ولو كانت متنقلة كلها، لم يكن لمسيرها منازل تُعْرَف ولا رسم يُقاس عليه؛ لأنه إنما يعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها في البروج الدانية، كما يعرف سير سائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها. فقد صار هذا الفلك شمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على هذا العالم بهذا دورانًا دائمًا في الفصول الأربعة من السنة لصلاح ما فيه من حيوانٍ ونباتٍ وغير ذلك بتقدير العزيز العليم. ومن عظيم الحكمة خلق الأفلاك التي بها ثبات هذا العالم على نهاية من الإتقان لطول البقاء وعدم التغير، فقد كفى الناس التغير في هذا الأمر الجليل الذي ليس قدرة ولا حيلة في إصلاحه، لو نزل به تغير، يوجب ذلك التغير أمرًا في الأرض. إذ قوام الأرض مرتبط بالسماء، فالأمر في جميع ذلك ماضٍ على قدرة الباري سبحانه؛ لا يختل، ولا يعتل، ولا يتخلف منه شيء عن ميقاته لصلاح العالم، فسبحان العليم القدير.



باب في حكمة خلق الأرض

قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ (١).

ثم انظر كيف جعل الله الأرض مهادًا ليستقر عليها الحيوان، فإنه لا بُدَّ له من مستقرٍ، ولا غِناء له عن قوت؛ فجميع الأرض محل للنبات لقوته، ومسكن يسكنه من الحر والبرد، ومدفن يُدَّفِنُ فيه ما تؤذي رائحته والجيف والأقذار من أجسام بني آدم وغيرها، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾(٢) . قيل في تفسير هذه الآية هذا القول وغيره: ثم ذلل طرقها لتنتقل فيها الخلق لطلب مآربهم؛ فهي موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان والحرث والنبات، وجعل فيها الاستقرار والثبات، كما نبه على ذلك ﷻ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾(٣). فأمكن الخلائق بهذا التصرف فيها في مآربهم، والجلوس لراحتهم، والنوم لهدوئهم، والانتقال لأعمالهم، فإنها لو كانت رجراجة متحركة، لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئًا من النبات وجميع الصناعات، وكانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج بهم من تحتهم. واعتبرْ ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ترهيبًا للخلق وتخويفًا لهم؛ لعلهم يتقون الله، وينزعون عن الظلم والعصيان، فهذا أيضًا من الحكمة البالغة. ثم إن الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص. أرأيت لو أفرط اليبس

(١) سورة الذاريات: ٤٨

(٢) سورة المرسلات: ٢٥ ، ٢٦

(٣) سورة النازعات: ٣١، ٣٢، ٣٣

عليها حتى تكون بجملتها حجرًا صلدًا، لما كانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوانات، ولا كان يمكن فيها حرث ولا بناء، فجعلَ لينة لتتهيأ لهذه الأعمال.

ومن الحكمة في خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال أرفع من الجنوب؛ لينحدر الماء على وجه الأرض، فيسقيها ويرويها، ثم يصير إلى البحر في آخر الأمر، فأشبه ذلك ما إذا رفع أحدٌ جانبي السطح وخفض الآخر لينحدر الماء عنه، ولولا ذلك لبقي الماء مُسْتَبْحِرًا على وجه الأرض فيمتنع الناس من أعمالهم وتنقطع الطرق والمسالك بسبب ذلك. انظر إلى ما خلق الله فيها من المعادن وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة في منافعها وألوانها، مثل: الذهب، والفضة، والياقوت، والزمرد، والبَنَفْش [1]، وأشياء كثيرة من هذه الأحجار الشفافة المختلفة في ألوانها، وأنواع أُخَر مما يصلح للأعمال والجمال كالحديد، والنحاس، والقصدير، والرصاص، والكبريت، والزرنيخ، والتوتيا، والرخام، والجبس، والنفط، وأنواع لو عُدِّدَتْ لطال ذِكْرُها، وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم. فهذه نِعَمٌ يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار، ثم انظر إلى إرادة إجادته من عمارتها وانتفاع العباد بها لجعلها هشة سهلة، بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال، فلو يبست كذلك لتعذرت، فإن الحرثَ لا يستقيمُ إلا مع رخو الأرض لزراعة الأقوات والثمر، وإلا فلا يتعدى، إذا صلبت الماء إلى الحَبِّ مع أَنَّ الحَبِّ لا يمكن دفنه إلا بعد أن تلين الأرض بالنداوة ويأخذ الورق وهي ضعيفة في ابتدائها في الأرض التربة. ويمكن إذ ذاك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق ملتبسة بالثرى حتى يقف الشجر والنبات على ساقه، وجعل ما يخلق من

---

[1] نوع من الحجارة الصَّوَّانيَّة.

العروق يوازن ما يخلق من الفروع. ومن رحمته في لينها أن ييسر للناس حفر الآبار في المواضع المحتاجة إلى ذلك، إذ لو حَفَرْتَ في الجبال لصَعُبَ الأمر وشَقَّ.

ومن الحكمة في لينها تيسير السير للسعادة فيها، إذ لو صلبت لعسر السير، ولم تظهر الطرق، وقد نبه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [١]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴿٣١﴾﴾ [٢]. ومن ذلك ما يستعين به العباد من ترابها ولينها في البناء وعمل اللبن وأواني الفخار وغير ذلك، والمواضع التي ينبت فيها الملح، والشب، والبورق [٣]، والكبريت، أكثرها تربة رخوة. وأيضًا أجناس من النبات لا يوجد إلا في التراب والرمل دون الأرض المحيلة، ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة حفرها، فيتخذون فيها مَسَارِبَ وبيوتًا يأوون إليها.

ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكر، فقد امتنَّ سبحانه على سليمان عليه السلام بقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [٤]، أي سَهَّلْنَا له الانتفاع بالنحاس، وأطلعناه على معدنه، وقال امتنانًا على عباده: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[٥]. والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

---

(١) سورة الملك: ١٥

(٢) سورة الأنبياء: ٣١

(٣) البَوْرق أو البوراكس هو مُرَكَّب مهم لعنصر البورون. يتكون من بلورات ناعمة، بيضاء متعددة الأطراف. وتذوب بلورات البورق بسرعة في الماء وتتجمع معًا إذا تعرضت لهواء رطب.

(٤) سورة سبأ: ١٢

(٥) سورة الحديد: ٢٥

[١]، أي خَلَقَ. وألهمهم استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك؛ لمنافعهم وما يحتاجون إليه في معاشهم، وفي اتخاذ أوانيهم، وفي ضبطها، ما يحتاجون إلى ضبطه وتقويته واتخاذ أنواع من الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج، ويتخذون منها أواني لحفظ ما يجعل فيها من الأمور النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الاحتياج إليها؛ إذ لا غنى لهم عنها. وكذلك يستخرج من المعادن الأكحال، مثل: (الدهبخ والمرفنعا) [٢] والسادن، والتوتيا، وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم.

ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال. قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [٤]. وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [٥]. فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعددة لا يحيط بجميعها إلا الله، فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء المياه ليحيي بها العباد والبلاد، فلو كانت الأرض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخاوة الأرض، فكانوا لا يجدون المياه إلا بعد حفر وتعب ومشقة. فجعل سبحانه الجبال لتستقر في بطونها المياه، ويخرج أولًا فأولًا فتكون منها عيون وأنهار وبحار يرتوي بها العباد في أيام القيظ إلى أوان نزول غيث السماء، ومن الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه، فجعل الثلجُ محفوظًا على ظاهرها

---

(١) سورة الزمر: ٦

(٢) هكذا موجودة في الطبعة القديمة والطبعات الجديدة، وموضوعة بين قوسين، وأظنهما كلمتين فارستين، والله أعلم.

(٣) سورة النازعات: ٣٢

(٤) سورة النحل: ١٥

(٥) سورة المؤمنون: ١٨

إلى أن يحله حر الشمس، فيكون منه أنهار وسواق ينتفع بها إلى أوان نزول الغيث أيضًا. ومنها ما يكون فيه بِرَك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها ويُنتفع به، ومن منافع الجبال ما يثبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير التي لا توجد إلا فيها، وما يثبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيُعمل منها السفن وتُعمر منها المساكن، وفيها الشعاري التي لا يوجد ما يعظم من الأخشاب إلا فيها، وكذلك العقاقير أكثرها لا يوجد إلا بها، وفيها وهاد تنبت مزارع للأنعام، ومزارع لبني آدم، ومساكن للوحوش ومواضع لأجناح النحل، ومن منافع الجبال ما يتخذه العباد من المساكن تقيهم الحر والبرد، ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى، وقد ذكر الله ذلك فقال: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ۝٨٢﴾ (١). ومن فوائدها أن جُعِلَتْ أعلامًا يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض، ويستدل بها المسافرون في البحار على المين والسواحل، ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفة الخائفة من عدوان مَن لا تطيقه تتخذ عليها ما يُحصنها ويُؤمنها ويمنعها ممن تخافه فتطمئن لذلك. وانظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير منصوص، ولم يجعل ذلك ميسرًا في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته، كما جعل هذه السعة في المياه، وما ذلك إلا لما سبق في علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ۝٢١﴾ (٢). فسبحان العليم الحكيم.



(١) سورة الحجر: ٨٢

(٢) سورة الحجر: ٢١

باب في حكمة البحر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ (١).

اعلم – رحمك الله – أن الله ﷻ خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها، فجعلها مكتنفةً لأقطار الأرض التي هي قطعة من الأرضِ المستورةِ بالبحرِ الأعظمِ المحيط بجميع الأرض، حتى أن جميع المكشوف من البراري والجبال عن الماء، بالإضافة إلى الماء، كربوة صغيرة في بحر عظيم. فاعلم أن ما يخلق في الأرض من الحيوان، بالإضافة إلى ما خَلَقَ في البحر كإضافة الأرض إلى البحر، وقد شاهدتَ عجائب فيها ما هو مكشوف منها، فتأمل عجائب البحر؛ فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض، ولِعِظَمِ سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة، ما إذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظَنَّ مَن يراها أنها حشاف (٢) وجبال أو جزائر، وما من صنف من أصناف حيوان البر من إنسان وطائر وفرس وبقر وغير ذلك إلا وفي البحر أمثالها وأضعافها. وفيه أجناس من الحيوانات لم تعهد أمثالها في البر، وكلٌّ منها قد دبره الباري سبحانه، وخلقَ فيه ما يحتاجه ويصلحه، ولو استقصى ذكر ما يحتويه بعضه لاحتاج إلى وضع مجلدات.

---

(١) سورة النحل: ١٤

(٢) جمع (حَشَفَة)، وهي: الصخرة الرِّخْوة حَوْلها السَّهْلُ من الأرضِ. (مقاييس اللغة).

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مُدورًا في صدف تحت الماء، وأَثْبَتَ المرجانَ في جنح صخور في البحر. فقال سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [(١)]. وذلك في معرض الامتنان، وقيل: المرجان المذكور في القرءان هو الرقيق من اللؤلؤ، ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [(٢)]، وآلاؤه تفضله ونعمه.

ثم انظر ما يقذفه من العنبر وغيره من المنفوع، ثم انظر إلى عجائب السفن وكيف مسكنها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال وتحصيل ما لهم من الأعراض وجعلها من آياته ونعمته. فقال: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [(٣)]. فجعلها بتسخيره تَحملهم وتحمل أثقالهم، وينتقلون بها من أقاليم إلى أقاليم لا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن، ولو راموا التوصل بغيرها لأدى إلى أعظم المشقات، وعجزوا عن نقل ما يُنقل من المنقولات إلى ما بعد البلاد والجهات. فلما أراد الله ﷻ أن يلطفَ بعباده ويُهَوِّنَ ذلك عليهم، خلق الأخشاب متخلخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء، ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما تحمل به الأثقال، وألهمَ العبادَ اتخاذها سُفُنًا. ثم أرسل الرياح بمقادير في أوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع إلى موضع آخر. ثم ألهم أربابها معرفة أوقات هبوبها وفترتها حتى يسيروا بالرياح التي تحملها شرائعها.

(١) سورة الرحمن: ٢٢

(٢) سورة الرحمن: ٢٣

(٣) سورة البقرة: ١٦٤

وانظر إلى ما يسره سبحانه في خلقه الماء، إذ هو جسمٌ لطيفٌ رقيقٌ سَيَّالٌ متصلُ الأجزاءِ كأنه شيء واحد، لطيفُ التركيبِ، سريعُ القبولِ للتقطع حتى كأنه منفصل، مسخر للتصرف، قابل للاتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه.

فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله في هذا كله، وفي بعضه متسع للفكر. وكل ذلك شواهد متظاهرة، ودلائل متضافرة، وآيات ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها، مُعْرِبَة عن كمال قدرته وعجائب حكمته، قائلة: أما ترى تصويري وتركيبي وصفاتي زمنًا واختلاف حالي وكثرة فوائدي؟ أيظن ذو لب سليم وعقل رصين أني تلونتُ بنفسي أو أبدعني أحد من جنسي؟ بل ذلك صُنْعُ القادر القهار العزيز الجبار.



باب في حكمة خلق الماء

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [1].
وقال عزَّ شأنه: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [2].

انظر – وفقك الله – إلى ما منَّ به ﷻ على عباده بوجود الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو اضطرَ الإنسانُ إلى شربة منه ومُنِعَ منها، لهَانَ عليه أن يبذل فيها ما يمكنه من خزائن الدنيا، والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة.

وانظر مع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها، ولو جعلها بِقَدَرٍ، لضاقَ الأمرُ فيها، وعَظُمَ الحرجُ على كلٍ مَنْ سكنَ الدنيا.

ثم انظر لَطَافَة الماء ورقته حتى ينزل من الأرض، ويخلخل أجزاءها، فتتغذى عروق الشجر ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنبات وهو مِنْ طبعه الهبوط، ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربه لإماعة الأغذية في أجواف الحيوان ليتصرف الغذاء إلى موضعه، جعله لشاربه في شربه لذة عند حاجته إليه، وقبول له، ويجد شاربه فيه نعيمًا وراحةً، وجُعِلَ مزيلًا للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب وغيرها. وبالماء يُبلُّ الترابَ، فيَصْلُح للبناء والأعمال، وبه

(1) سورة الأنبياء: ٣٠

(2) سورة النمل: ٦٠

يُرَطَّبُ كل يابس مما لا يمكن استعماله يابسًا، وبه ترق الأشربة فيسوغ شربها، وبه تطفأ عادية النار إذا وقعت فيها، فلا تلتهب فيه، وأشرف الناس منها على ما يكرهون، وبه تزول الغصة إذا أشرف صاحبها على الموت، وبه يغتسل التعب الكل، فيجد الراحة لوقته، وبه تستقيم المطبوخات وجميع الأشياء التي لا تُسْتَعْمَلُ ولا تَصْلُحُ إلا رطبة إلى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى لهم عنها.

فانظر في عموم هذه النعمة وسهولة تناولها عن قَدَرِهَا مع شدة الحاجة إليها. فلو ضاقتْ، لكدرت الحياة في الدنيا، فَعُلِمَ بهذا أن الله تبارك وتعالى أرادَ بإنزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعدن إلى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها الوصف لمن يروم حصرها، فسبحان المتفضل العظيم.



باب الحكمة في خلق الهواء

قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴿٢٢﴾﴾ [1].

اعلم - رحمك الله - أن الهواء في حلقه تتخلخله الرياح، ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر، وباستنشاقه تعتدل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات؛ لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر. فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه، لانصرفت الحرارة التي فيها إلى قلبها، فكان هلاكها بسبب ذلك.

ثم انظر إلى الحكمة في سوق السحاب به، فيقطع المطر بانتقال السحاب في موضعٍ يحتاج إلى المطر فيها للزراعة، فلولا لُطْفُ الباري بخلق الرياح، لَثَقُلَتْ السحائبُ، وبَقِيَتْ راكدة في أماكنها، وامتنع انتفاع الأرض بها.

ثم انظر عنها كيف تسير السفن بها، وتنتقل بحدوثها وهبوبها، فتحمل فيها من أقاليم إلى أقاليم مما لا يخلق تلك الأشياء فيها فينتفع أهلها بها، فلولا تنقلها بالهواء، لم تكن تلك الأشياء إلا بمواضعها التي خلقت فيها خاصة، ولعسر نقلها بالدواب إلى غيرها من الأقاليم، وللعباد ضرورات تدعو إلى ما ينقل إليهم مما ليس يخلق عندهم، ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يجلها ويعلم فوائدها.

---

(١) سورة الحجر: ٢٢

ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة التي تتخلل أجزاء العالم، فيُنَقِّي بحركته عفن الأرض، فلولاه لَعَفَنَتْ المساكن وهَلَكَ الحيوان بالوباء والعلل.

ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع في نقل السوافي والرمال إلى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب بسبب حركة الهواء، وتستر وجوه جبال بالسوافي، فيمكن الزراعة فيه، وما فصل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه، وكل ذلك بحركة البحر بالهواء، فيقذفُ البحرُ العنبرَ وغيره مما ينتفع به العباد في أمورهم.

ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الأرض قطرات، فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل الصبابة واحدة؛ فيهلك ما يقع عليه، ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهارًا وبحارًا على وجه الأرض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه؛ فانظر إلى أثر رحمة الله، فسبحان اللطيف بخلقه المدبر لملكه.

ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول هذه النعمة وجليل قدرها، كما نبه العقول عليها بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٌ وَمِنۡهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ [1]. ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحوَ يتخلل نزول الغيث، فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم، فلو دام واحد منهما عليه لكان فسادًا. ألا ترى أن الأمطار إذا توالت وكثرت، عَفَنَتْ البقول والخضراوات، وهُدِمَتْ المساكن والبيوت، وقُطِّعَتْ

---

(1) سورة النحل: ١٠، ١١

السُّبُل، ومُنِعَتْ من الأسفار وكثير من الحرف والصناعات، ولو دام الصحو لجَفَّتْ الأبدان والنبات، وعفن الماء الذي في العيون والأدوية، فأضرَّ ذلك بالعباد، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضررًا آخر من الأمراض، وغلتْ بسببه الأسعار من الأقوات، وبطل المرعى، وتعذرَ على النحل ما يجده من الرطوبة التي يرعاها على الأزهار. وإذا تعاقبا على العالم، اعتدل الهواء، ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر، فصلحتْ الأشياء واستقامت، وهذا هو الغالب من مشيئة الله.

فإن قيل: قد يقع من أحدهما ضرر في بعض الأوقات. قلنا: قد يكون ذلك؛ لتنبيه الإنسان بتضاد الأشياء على نعمة الله تعالى وفضله ورحمته أنه هو الغالب؛ فيحصل لهم بتلك انزجار عن الظلم والعصيان، ألا ترى مَنْ سقمَ جسمه احتاج إلى ما يلائمه من الأدوية البشعة الكريهة ليصلح جسمه ويصح ما فسد منه. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۝٢٧﴾ [1].



(1) سورة الشورى: ٢٧

باب في حكمة خلق النار

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ٧٤﴾ (1).

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن الله خلق النار، وهي من أعظم النعم على عباده، ولما علم الله سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثها في العالم مفسدة، جعلها الله بحكمته محصورة، حتى إذا احتيج إليها، وُجِدَتْ واسْتُعْمِلَتْ في كل أمر يُحْتَاجُ إليها فيه، فهي مخزونة في الأجسام، ومنافعها كثيرة لا تُحصى. فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط ولا صحة هضم لمن يستعملها في أكل وشرب.

فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر المهم، ثم انظر فيما يحتاج الناس إليه من الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والرصاص، والقصدير، وغير ذلك، فلولاها لم يكن شيء من الانتفاع من هذه الأشياء، فبها يذاب النحاس فتعمل منه الأواني وغيرها. وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة تُوجِبُ الشكر، فقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ (2). وبه يلين الحديد فيعملون به أنواعًا من المنافع والآلات للحروب، مثل: الدروع والسيوف إلى غير ذلك مما يطول تعداده،

---

(1) سورة الواقعة: ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤

(2) سورة سبأ: ١٣

وقد نبه الله تعالى على مثل هذا، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴿٨٠﴾﴾ [2]. ومنه يُعْمَلُ آلات للحرث والحصاد، وآلات تتأثر بها النار، وآلات يطرق بها، وآلات لقطع الجبال الصمَّة، وآلات لنجارة الأخشاب مما يكثر تعدادها. فلولا لطف الله سبحانه بخلق النار، لم يحصل من ذلك شيء من المنافع، ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة، وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة.

ثم انظر إلى ما جعل الله تعالى في النار من الفرح والترح عندما تغشى الناس ظلمة الليل: كيف يستضيئون بها ويهتدون بنورها في جميع أحوالهم من أكل وشرب وتمهيد مراقد، ورؤية ما يؤذيهم ومؤانسة مرضاهم وقصدها أو العمل عليها برًّا وبحرًا، فيجدون بوجودها أُنْسًا حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم، ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة، ويستعينون بها في الحروب ومقاومة حصون لا تُمْلَكُ إلا بها؟

فانظر ما أعظم قدر هذه النعمة التي جعل سبحانه حكمها بأيديهم إن شاءوا خزنوها وإن شاءوا أبرزوها.



(1) سورة الحديد: ٢٥

(2) سورة الأنبياء: ٨٠

باب في حكمة خلق الإنسان

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [1].

إلى آخر ما وصفه سبحانه.

اعلم - وفقك الله تعالى - أن الله ﷻ لما سبق في علمه خلق الخلق وبثهم في هذه الدار، وتكليفهم فيها للبلوى والاختبار. خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض، فخلق سبحانه الذكر والأنثى، وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي حتى عجزوا عن الصبر، وعدموا الحيلة في اجتناب الشهوة. فساقتهم الشهوة المفطورة في خلقهم إلى الاجتماع، وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصًا به إلى إيداع الماء في القرار المكين الذي يخلق فيه الجنين، فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن، وخرجت ماء دافقًا مندفعًا من بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة، فانتقلت بسبب الأفلاج من باطن إلى باطن. فكانت مع انتقالها باقية على أصلها، لأنها ماء مهين أدنى شيء يباشرها يفسدها وبغير مزاجها، فهي ماء يختلط جميعه مستوية أجزاؤه لا تفاوت فيها بحال؛ فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى بعد نقلها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام، ثم كساها اللحم، وشدها بالأعصاب، والأوتار، ونسجها بالعروق، وخلق الأعضاء وركبها فدور سبحانه الرأس، وشق فيها السمع، والبصر، والأنف، والفم، وسائر المنافذ.

---

(1) سورة المؤمنون: ١٢

فجعل العين للبصر، ومن العجائب: سر كونها مبصرة للأشياء، وهو أمر يعجز عن شرح سره، وركَّبها من سبعٍ طبقات؛ لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها، فلو فقدت طبقة منها، أو زالت، لتعطلت عن الإبصار.

وانظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقي العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبار وغيره، فكانت الأشفار بمنزلة باب يُفتح وقت الحاجة، ويُغلق في غير وقتها. ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه، جعلَ شعرها على قدرٍ لا يزيد زيادة تضر بالعين، ولا ينقص نقصًا يضر بها، وخلق في مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلًا لينصرف ما يقع في العين من أحد الجانبين، وجعل الحاجبين جمالًا للوجه، وسترًا للعينين، وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوهة. وجعل شعر الرأس واللحية قابلًا للزيادة والنقص، فيفعل فيهما ما يقصد به الجمال من غير تشويه.

ثم انظر إلى الفم واللسان، وما في ذلك من الحِكَمِ، فجعل الشفتين سترًا للفم كأنهما باب يُغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال، فلولاهما لتشوهت الخلق، وهما مُعِينَان على الكلام، واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الإنسان، وتقليب الطعام وإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه، ويسهل ابتلاعه. ثم جعل الأسنان أعدادًا متفرقةً، ولم تكن عظمًا واحدًا، فإن أصاب بعضها ثُلْمٌ(١) ، اِنْتُفِعَ بالباقي، وجمع فيها بين النفع والجمال، وجعل ما كان منها معكوسًا زائد الشعب حتى تطول مدته مع الصف الذي تحته، وجعلها صلبة ليست

(١) ثُلْمٌ: هو تَشَرُّمٌ يقعُ في طرف الشيء، كالثُّلْمة تكون في طَرَفِ الإناء، وقد يُسمَّى الخللُ أيضًا ثُلْمة، وإن لم يكن في الطَرْفِ. (مقاييس اللغة). وهي بمعنى: الكسر أو خلل في وظائف الأسنان. (المُحَقِّق).

كعظام البدن لدعا الحاجة إليها على الدوام. وفي الأضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة إلى دَرْسِ الغذاء؛ فإن المضغ هو الهضم الأول. وجُعِلَتْ الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام وجمالًا للفم فأحكم أصولها، وحدد ضروسها، وبيَّضَ لونها مع حمرة ما حولها، متساوية الرؤوس متناسبة التركيب، كأنها الدر المنظوم.

ثم انظر كيف خَلَقَ في الفم نداوة محبوسة لا تظهر إلا في وقت الحاجة إليها، فلو ظهرتْ وسَالَتْ قبل ذلك، لكان تشويها للإنسان؛ فجُعِلَتْ لِيُبَلَّ بها ما يُمْضَغُ مِنَ الطعامِ حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم. فإذا فُقِدَ الأكل، عُدِمَتْ تلك النداوة الزائدة التي خلقت للترطيب، وبقي منها ما يبل اللهوات والحلق لتصوير الكلام ولِئَلا يجف، فإن جفافه مهلك للإنسان.

ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه؛ إذ جعل للآكلِ لذةُ الأكلِ، فجعل الذوق في اللسان وغيره من أجزاء الفم؛ ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من الملذوذ، فيجد في ذلك راحة في الطعام والشراب إذا دعت حاجة إلى تناوله، وليجتنب الشيء الذي لا يوافقه، ويعرف بذلك حد ما تصل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة.

ثم إن الله تعالى شَقَّ السمعَ وأودعه رطوبة مُرَّة يحفظ بها السمع من ضرر الدود، ويقتل أكثر الهوام الذين يَلِجُون السمعَ، وحَفَظَ الأذنَ بصدفةٍ لتجمع الصوت فترده إلى صِمَاخِها [1]. وجعل فيها زيادة حس لتحس بما يصل إليها مما يؤذيها من هوام وغيرها، وجعل فيها تعويجات ليتطرد فيها الصوت، ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه، فيتنبه، فيتأثر ويتنبه صاحبها من النوم.

---

(1) الصِّماخ: خَرْقُ الأُذُنِ. يقال: صَمَخْتُهُ، إذا ضَربتَ صِماخَه. (مقاييس اللغة).

ثم انظر إلى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء، وذلك سر لا يعلم حقيقته إلا الباري سبحانه إلى غير ذلك.

ثم انظر كيف رفع الأنف في وسط الوجه، فأحسن شكله، وفتح منخريه، وجعل فيها حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه، وليتنعم بالروائح العطرة، ويجتنب الخبائث القذرة، وليستنشق أيضًا روح الحياة غذاء لقلبه وترويحًا لحرارة باطنه، ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الأصوات، ودور اللسان في الحركات والتقطيعات، فينقطع الصوت في مجاري مختلفة تختلف بها الحروف ليشع طرق النطق. وجعل الحنجرة مختلف الأشكال في الضيق، والسعة، والخشونة، والملاسة، وصلابة الجوهر ورخاوته، والطول، والقِصَرِ، حتى اختلف بسبب ذلك الأصوات. فلم يتشابه صوتان، كما خلق بين كل صورتين اختلافًا، فلم تشتبه صورتان، بل يظهر بين كل صورتين فرقان، حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت. وكذلك يظهر بين كل شخصين فَرْقَان، وذلك لسر التعارف، فإن الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما، فخلق منهما خلقًا جعله مخالفًا لخلق أبيه وأمه، ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف.

ثم انظر لخلق اليدين تهديان إلى جلب المقاصد، ودفع المضار، وكيف عَرَّضَ الكف وقَسَّمَ الأصابع الخمس، وقَسَّمَ الأصابع بأنامل، وجعل الأربعة في جانبٍ والإبهام في جانبٍ آخر، فيدور الإبهام على الجميع. فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستطيعوا بدقة الفكر وجهًا آخر عن وضع الأصابع سوى ما وُضِعَتْ عليه من بعد الإبهام عن الأربعة، وتفاوت الأربعة في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا على ذلك. وبهذا الوضع صلح بها القبض والإعطاء. فإن

بسطها كانت طبقًا يضع عليه ما يريد، وإن جمعها كانت آلة يضرب بها، وإن ضمها ضمًّا غير تام كانت مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة، ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعمادًا لها من ورائها حتى لا تضعف بها، ويلتقط الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل لولاها، وليحك بها جسمه عند الحاجة إلى ذلك.

فانظر أقل الأشياء في جسمه لو عدمها وظهرت به حكة لكان أضعف الخلق، وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه، وجلب ما ينتفع به في ذلك، ولم يقم له غير الظفر مقامه في حَكِّ جسده، لأنه مخلوق لذلك ولغيره، فهو لا صلب كصلابة العظام، ولا رخو كرخاوة الجلد يَطول ويُخلق ويُقَصُّ ويقصر لمثل ذلك. ثم جعله يهتدي به إلى الحَكِّ في حالة نومه ويقظته ويقصد المواضع إلى جهتها من جسده، ولو احتاج إلى غيره واستعان به في حكمها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة إلا بعد طول وتعب.

ثم انظر كيف مَدَّ منه الفخذين والساقين، وبسط القدمين ليتمكن بذلك من السعي، وزين القدمين بالأصابع، وجعلها زينة وقوة على السعي، وزين الأصابع أيضا بالأظفار وقوَّاها بها.

ثم انظر كيف خلق هذا كله من نطفة مهينة، ثم خلق منها عظام جسده فجعلها أجسامًا قوية صلبة لتكون قوامًا للبدن وعمادًا له، وقدَّرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسبة، فمنها صغير، وطويل، ومستدير، ومجوف، ومصمت عريض، ودقيق، ثم أودع في أنابيب هذه العظام المخ الرقيق مصونًا لمصلحتها وتقويتها. ولما كان الإنسان محتاجًا إلى جملة جسمه، وبعض أعضائه لتردده في حاجاته لم يجعل الله سبحانه عظامه عظمًا واحدًا، بل عظامًا كثيرةً، وبينها مفاصل

حتى تتيسر بها الحركة، فقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها. ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتاد أثبتها بأحد طرفي العظم، وألصق الطرف الآخر كالرباط، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجية منها، ومن الآخرة نقراً غائصة فيها توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق، فصار الإنسان إذا أراد أن يحرك شيئًا من جسده دون غيره لم يمتنع عليه. فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم انظر كيف جعل خلق الرأس مُرَكَّبًا من خمسة وخمسين عظمًا مختلفة الأشكال والصور، وأَلَّفَ بعضها إلى بعض بحيث استوت كرة الرأس كما ترى، فمنها ستة تختص بالقحف، وأربعة وعشرون للحي الأعلى، واثنان للحي الأسفل، والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن، وبعضها حاد يصلح للقطع، ثم جعل الرقبة مركز الرأس، فركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها، ثم رَكَّبَ الرقبةَ على الظهرِ من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة، وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة ووصل به من أسفله عظم العصعص وهو مؤلف من ثلاثة أخرى، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر، وعظام الكتف، وعظام اليدين، وعظام العانة، وعظام العجز، وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين. فجملة عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظمًا سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل.

فانظر كيف خلق الباري ﷻ ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة، والمقصود من ذكر أعدادها: تعظيم مدبرها وخالقها، وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصَّها

بهذا القدر المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالًا، واحتاج الإنسان إلى قلعه، ولو نقص منها واحد لاحتاج الإنسان إلى جبره؛ فجعل ﷻ في هذا الخلق عبرة لأولي الأبصار، وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها.

ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهي العضلات. فخلق في بدن الإنسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجتها. فأربعة وعشرون: منها لحركة العين وأجفانها بحيث لو نقصت منها واحدة، اختل أمر العين، وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه. وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين ومنابتها وسعتها، فأعجب من هذا وشرحه يطول. ثم عجائب ما فيه من المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم.

ثم انظر إلى ما شرف به وخص في خلقه بأنه خلق ينتصب قائمًا، ويستوي جالسًا، ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه، ويمكنه العلاج والعمل، ولم يخلق مكبوبًا على وجهه كعدة من الحيوانات؛ إذ لو كان كذلك، لما استطاع هذه الأعمال.

ثم انظر من حيث الجملة إلى ظاهر هذا الإنسان وباطنه فتجده مصنوعًا صنعة بحكمة تقضي منها العجب، وقد جعل سبحانه أعضاءه تامة بالغذاء، والغذاء منوال عليها. لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير لا يتعداها؛ بل يقف عندها ولا يزيد عليها، فإنها لو تزايدت بتوالي الغذاء عليها لعظمت أبدان بني آدم وثقلت عن الحركة، وعطلت عن الصناعات اللطيفة، ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها، ومن اللباس كذلك، ومن المساكن مثل ذلك. وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على

هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقًا بخلقه. فإذا وجدتَ هذا كله صنعه الله تعالى من قطرة ماء، فما ظنك بصنعته في ملكوت السماوات، والأرض، وشمسها، وقمرها، وكواكبها، وما حكمته في أقدارها، وأشكالها، وأعدادها، وأوضاعها، واجتماع بعضها، وافتراق بعضها، واختلاف صورها، وتفاوت مشارقها ومغاربها؟ فلا تظن أن ذرةً في السماوات والأرض وسائر علم الله ينفك عن حكم؛ بل ذلك مشتملٌ على عجائب وحكم لا يحيط بجميعها إلا الله ﷻ. ألم تسمع قوله ﷻ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧﴾ (١) إلى آخر ما نبه به. وتأمل لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعًا وبصرًا وحياةً، لم يقدروا على ذلك.

فانظر كيف خلقها سبحانه في الأرحام، وشَكَّلَها فأحسن تشكيلها، وقَدَّرَها فأحسن تقديرها، وصَوَّرَها فأحسن تصويرها، وقَسَّمَ أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة، فأَحْكَمَ العظامَ في أرجائها، وحَسَّنَ أشكال أعضائها، ورَتَّبَ عروقها وأعصابها، ودَبَّرَ ظاهرها وباطنها، وجعل فيها مجرى لغذائها؛ ليكون ذلك سببًا لبقائها مدة حياتها. ثم كيف رَتَّبَ الأعضاء الباطنة من القلب، والكبد، والمعدة، والطحال، والرئة، والرحم، والمثانة، والأمعاء، كل عضو بشكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص؛ فجعل المعدة لنضج الغذاء عصبًا معينًا شديدًا لحاجتها، وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه، وجعل طحن الأضراس أولًا معينًا للمعدة على جودة طحنه وهضمه، وجعل الكبد لإحالة الغذاء إلى الدم فيجتذب منه كل عضو من الغذاء ما يناسبه، فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم، وغذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب، وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره. وجعل الطحال والمرارة والكلية لخدمة

---

(١) سورة النازعات: ٢٧

الكبد، فالطحال لجذب السوداء، والمرارة لجذب الصفراء، والكلية المائية عنه، والمثانة لقبول الماء عن الكلية، ثم يخرجه في مجرى الإحليل والعروق والكبد في اتصال الدم منه إلى سائر أطراف البدن، وجعل جوهرها أتقن من جوهر اللحم؛ ليصونه ويحصره فهي بمنزلة الظروف والأوعية.

ثم انظر كيف دَبَّرَه في الرحمِ، ولطف به ألطافًا يطول شرحها، ولا يستكمل العلم بجملتها إلا خالقها، ويعجز الواصف عن وصف ما وصل إليه نظره من ذلك، فمن ذلك جعله فيهما لا يحتاج إلى استدعاء، ولا يحتاج المولود إلى ما يبين ذلك لا بوعظ ولا تنبيه؛ بل ذلك في الطباع إلى وقت حاجة المولود إلى الإغاثة في غذائه. ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب، وكلفة التربية حتى اشتد جسمه، وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء، فحينئذ أنبت له الأسنان عند الحاجة إليها لا قبل ذلك ولا بعده.

ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدريج إلى حين كماله وبلوغه. وانظرْ وفَكِّرْ في سِرِّ كونه يولد جاهلًا غير ذي عقل وفَهم، فإنه لو كان ولدًا عاقلًا فيهما لأنكر الوجود عند خروجه إليه حتى يبقى حيران تائه العقل. إذ رأى ما لا يعرف، وورد عليه ما لم يره ولم يعهد مثله، ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولًا وموضوعًا معصباً بالخرق ومسجى في المهد مع كونه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد، ثم كان لا يوجد له من الرقة له والحلاوة والمحبة في القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه. فتبين أن ازدياد العقل والفَهم فيه على التدريج أصلح به. أفلا يرى كيف أقام كل شيء من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب وأعلمه تقلب الخطأ في دقيقه وجليله.

ثم انظر فيما إذا اشتد خلق فيه طريقًا وسببًا للتناسل، وخلق في وجهه شعرًا ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان، ويجمله، ويستر به غضون وجهه عند شيخوخته. وإن كانت أنثى، أبقى وجهها نقيًّا من الشعر؛ لتبقى لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما في ذلك من بقاء النسل.

فَكِّرْ - الآن - فيما ذكرناه ودبره سبحانه في هذه الأحوال المختلفة: هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مهلًا؟ أرأيت لو لم يجر له الدم غذاء وهو في الرحم، ألم يكن يذوي ويهلك ويجف كما يجف النبات إذا انقطع عنه الماء؟ ولو لم يزعجه المخاض عند استكماله، ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه؟ ولو لم يوافه اللبن عند ولادته، ألم يكن يموت جوعًا وعطشًا أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه؟ ولو لم يخلق له الأسنان في وقتها، ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراده ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه؟ ولو لم يخرج شعر الوجه، لَبَقِيَ في هيئة النساء والصبيان فلا ترى له هيبةً ولا جلالةً ولا وقارًا، ومَنْ ذا الذي يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب في وقتها إلا الذي أنشأه بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، وتَفَضَّلَ عليه، ومَنَّ عليه بكل هذه النعم؟

فَكِّرْ في شهوة الجماع الداعية لإحيائه، والآلة الموصلة إلى الرحم النطفة، والحركة الموجبة لاستخراج النطفة، وما في ذلك من التدبير المحكم. ثم فَكِّرْ في جملة أعضاء البدن وتهيئة كل عضو منها للأرب الذي أُرِيدَ منها: فالعينان للاهتداء بالنظر، واليدان للعلاج والحذف والدفع، والرجلان للسعي، والمعدة لهضم الطعام، والكبد للتخليص والتمييز، والفم للكلام ودخول الكلام ودخول الغذاء، والمنافذ لدفع

الفضلات. وإذا تأملتَ كذلك مع سائر ما في الإنسان وجدته قد وضع على غاية الحكمة والصواب.

فَكِّرْ في وصول الغذاء إلى المعدة حتى ينضجه ويبعث صفوه إلى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء، ولكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها [1]، فإنها خُلِقَتْ دقيقة لا تحمل الغث فتقلبه بإذن الله دَمًّا وتنفذ إلى سائر البدن في مجارٍ مُهيأة لذلك، فيصل إلى كل شيء من ذلك ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴿٦٤﴾﴾ [2]. ثم ينفذ ما يكون من خَبَث وفضول إلى معابض وأعضاء أُعِدَّتْ لذلك، كما ذكرنا قبل هذا، فكونها كالأوعية تحمل هذه الفضلات لكيلا تنتشر في البدن فتقسمه.

ثم انظر: هل تجد في خلق البدن شيئًا لا معنى له؟ هل خُلِقَ البصرَ إلا ليدرك الأشياء والألوان؟ فلو كانت الألوان، ولم يكن بصر يدركها، هل كان في الألوان منفعة؟ ولو لم يكن لخلق الأبصار، نور خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر؟ وهل خُلِقَ السمعَ إلا ليدرك الأصوات؟ فلو كانت الأصوات، ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة، وكذلك سائر الحواس.

---

(1) نَكَأَ: نَكَأَ القَرْحَةَ يَنْكُؤُها نَكْئًا. قَشَرَها قَبْلَ أَنْ تَبْرَأَ فَنَدِيَتْ. وَقَدْ نَكَيْتُ فِي العَدُوِّ أَنْكَى نِكَايَةً؛ أَيْ هَزَمَتْه وغَلَبَته. (لسان العرب).

(2) سورة غافر: ٦٤

فَكِّرْ في أشياء جُعِلَتْ بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها: منها الضياء والهواء، فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات، لم يدركها البصر، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع، لم يكن السمع يدرك الصوت.

فَكِّرْ فيمن عُدِمَ البصرَ والسمعَ وما يناله من الخلل، فإنه لا ينظر أن يضع قدمه، ولا يدري ما بين يديه، ولا يفرق بين الألوان، ولا يدري بهجوم آفة أو عدو، ولا سبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات. وأما من عُدِمَ السمعَ، فإنه من يفقد روح المخاطبة والمحاضرة، ويعدم لذة الأصوات المستحسنة والألحان المطربة، وتعظم المئونة على مَنْ يخاطبه حتى ينصرم منه، ولا يسمع شيئًا من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد، وكالميت وهو حي. وأما مَنْ عُدِمَ العقلَ فهو أشر من البهائم.

فانظر كيف صارت هذه الجوارح وهذه الأوصاف التي بها صلاح الإنسان محصلة ومبلغة لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده، وإذا فقد شيئًا، اختلَّ أمره، وعظم مصابه. ومَنْ بُلِيَ بِفَقْدِ شيءٍ منها، فهو تأديب وموعظة وتعريف بقدر نعمة الله في حقه وحق أمثاله، ولينال بصبره على ذلك حظًّا في الآخرة.

فانظر إلى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع.

ثم فَكِّرْ في الأعضاء التي خُلِقَتْ أفرادًا وأزواجًا، وما في ذلك من الحكمة والصواب. فالرأس مما خُلِقَ فردًا، وإنَّ كثيرًا من الحواس قد حواها رأس واحد، ولو زاد عليه شيء كان ثقلًا لا يحتاج إليه. فإن كان قسمين، فإن تكلم أحدهما بقي الآخر معطلًا لا حاجة إليه، وإن تكلم منهما جميعًا بكلام واحد كان أحدهما فضلة

لا يحتاج إليها، وإن تكلم من أحدهما بخلاف ما يتكلم به من الآخر، لم يَدْرِ السامعُ مرادَه من ذلك. وأما الذي يأخذ به السامع هو ما كان واضحًا، واليدان خُلِقَتَا أزواجًا، ولم يكن للإنسان خير في أن يكون يلم بيد واحدة؛ لاختلال ما يعالجه من الأمور. فإنك ترى مَنْ شُلَّتْ إحدى يديه، ما يكون عنده من النقص، وأن يكلف بشيء، لم يحكمه ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين وحكمة الرجلين ظاهرة.

فَكِّرْ في تهيئة آلات الصوت؛ فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والأسنان لإصاغة الحروف والفم. ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل في كلامه؟

ثم انظر إلى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها إلى الرئة، فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع، وما في اللسان من تقليب الطعام، وإعانته على تسويغ الطعام والشراب، وما في الأسنان من المعونة أيضًا، ثم هي كالمسند للشفتين تمسكهما وتدعهما من داخل الفم، وبالشفتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله إلى الجوف بقصد وبقدر ما يختاره الإنسان، ثم هما على الفم كالباب. فقد تبين أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجوه من المآرب وضروب من المصالح، إن زاد أفسد، وإن نقص أفسد؛ فذلك تقدير العزيز العليم.

فَكِّرْ في الدماغ إذا كشف عنه، فإنك تجده قد لف بعضه فوق بعض ليصونه من الأعراض، وأطبقت عليه الجمجمة والشعر ستر لها وجمال، ولتبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد، وغير ذلك؛ فخصن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه معهم، وأنه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحس.

ثم انظر كيف غيب الفؤاد في جوف الصدر، وكساه المدرعة التي هي غشاؤه، وأتقنها، وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه، وأن ذلك اللائق به.

ثم انظر كيف جعل في الحلق منفذين: أحدهما للصوت وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة، والآخر للغذاء وهو المريء الواصل إلى المعدة، وجعل على الحلقوم طبقًا يمنع الطعام أن يصل إليه، ثم جعل الرئة مروحة الفؤاد، لا تفتر ولا تخل تأخذ وترد بغير كلفة؛ لِئَلَّا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي إلى التلف، ثم ملأ الجو هواء لهذه المصلحة ولغيرها.

ثم انظر كيف جعل منافذ البول والغائط أسراحًا يضبطها لكي لا يجري جريانًا دائمًا، فيفسد على الإنسان عيشته.

ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيرًا كثيفًا، ليقي الإنسان من ألم الجلوس على الأرض كما يألم من الجلوس مَنْ نَحَلَ جسمه، وقَلَّ لحمه، إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل.

انظر لو كان ذَكَرُ الرجلِ مسترخيًّا أبدًا، كيف يصل الماء إلى موضع الخلق، ولو كان منعظًا أبدًا، كيف يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك؟ بل جعله مستورًا كأنه لم تخلق له شهوة.

ثم انظر أليس أنه من حُسْنِ التدبير في البناء أن يكون الخلاء في أستر موضع في الدار، فلهذا اتخذ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الإنسان في أستر موضع من جسده

مغيب فيه تلتقي عليه نخذاه بما عليهما من اللحم، فتواريه به ويخفي ذَكَره، وذلك مخصوص بالإنسان لشرفه.

ثم انظر في خلق الشعر والأظفار لما كانا يطولان، وفي تقصيرهما مصلحة جعلا عديمي الحس، حتى لا ينال الإنسان ألم عند التزيين بقصهما، ولولا هذه الحكمة لكان بين أمرين: إما أن يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه، أو يزيل ذلك فيتألم بإزالته.

ثم تفكر في الشعور لو نبتت في العين لأعمت البصر، أو في الفم لنغصت الأكل والشرب، أو في راحة الكف لنفدت لذة اللمس وبعض الأعمال، أو في الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها. فسبحان المدبر المنعم بهذه النعم.

فانظر كيف تصد بهذا الخلق طريق الصواب، وتجنب الخطأ والضرر، ثم فيما جبل عليه الإنسان من الاحتياج إلى المطعم والنوم والجماع وما في ذلك من التدبير المحكم. فقد جعل في طبعه محركًا يقتضيه ويستحثه. فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته، وكذلك الشراب الذي به قوامه، والنوم فيه راحة البدن وعموم القوى، والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه، فلو كان الإنسان إنما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة إليه، ولم يجد من طباعه ما يلجئه إليه لاشتغل بأسباب ضرورته، فينحل قواه ويهلك، كما أنه قد يحتاج إلى دواء يكرهه وفيه صلاحه، وليس في جبلته داعية له فيدافع عن تناوله فيمرض أو يموت. فكذلك لو كان يفعل النوم ويدخله على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض مهماته،

فيهلك جسمه بالتعب والنصب. وكذلك لو كان إقدامه على الجماع، إنما هو لرغبة حصول الولد لانقطع النسل لما يعارضه من الأسباب المشغلة.

فانظر كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره إلى حصول هذه الفوائد.

انظر كيف رتبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب، فصار البدن بما فيه بمنزلة دار لملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار، فواحد لإمضاء حوائج الحشم وإيراد ماء لهم، وآخر لقبض ما يرد خزنه إلى أن يعالج ويهيأ، وآخر لإصلاح ذلك وتهيئته وإصلاحه أخص مما قبل، وآخر لكسح ما في الدار من الأقذار وإخراجه. فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه، والدار هي البدن، والحشم هي الأعضاء، والقوم في هذه القوى الأربع التي هي النفس وموقعها من الإنسان بمعنى الفكر، والوهم، والعقل، والحفظ، والغضب، وغير ذلك. أرأيت لو نقص من الإنسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف يكون حاله، وكان لا يحفظ ما له وما عليه، وما أصدر وما أورد، وما أعطى وما أخذ، وما رأى وما سمع، وما قال وما قيل له، ولم يذكر من أحسن إليه ولا من أساء له، ولا من نفعه ممن ضره، وكان لا يهتدي لطريق ولو سلكه، ولا لعلم ولو درسه، ولا ينتفع بتحريره، ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى.

فانظر إلى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها، فكيف جميعها وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان. فلولا النسيان ما سلا الإنسان عن مصيبة، فكان لا ينقص له حسرة، ولا يذهب عنه حقد، ولا يستمتع بشيء من لذات الشهوات

الدنيوية مع تذكر الآفات والفجائع المغضبات، وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ولا فترة، ولا ذهولًا من حاسد أو قاصد مضرة.

فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان وهما متضادان، وجعل للإنسان في كل منهما ضروبًا من المصالح.

ثم انظر إلى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء، فلولاه لم تقل العثرات، ولم تقض الحاجات، ولم يقر الضيف، ولم يثمر الجميل فيفعل، ولا يتجافى عن القبيح فيترك، حتى أن كثيرًا من الأمور الواجبة، إنما تفعل لسبب الحياء من الناس، فترد الأمانات، وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما، ويعف عن فعل الفواحش إلى غير ذلك من أجل الحياء.

فانظر ما أعظم موقع هذه النعمة في هذه الصفة.

وانظر ما أنعم الله به من النطق الذي يميز به عنه البهائم فيعبر بما في ضميره، ويفهم عن غيره ما في نفسه، وكذلك نعمة الكتابة التي تفيد أخبار الماضين للباقين، وأخبار الباقين للآتين، وبها تخلد في الكتب العلوم والآداب، ويعلم الناس ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست العلوم، وضاعت الفضائل والآداب، وعظم الخلل الداخل على الناس في أمورهم بسبب عدمها.

فإن قلت: إن الكلام والكتابة مكتسبة للإنسان وليست بأمر طبيعي، ولذلك تختلف الخطوط بين عربي وهندي ورومي إلى غير ذلك، وكذلك الكلام هو شيء يصطلح عليه، فلذلك اختلف.

قلنا: ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة، والذهن والفكر الذي يهتدي به ليس بفعل الإنسان، ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبدًا، فسبحان المنعم عليه بذلك، وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه، والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبدًا، فسبحان المنعم عليه بذلك.

ثم انظر إلى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به ما يؤذيها، وما خلق فيه من الحسد فبه يسعى في جلب ما ينتفع به غير أنه مأمور بالاعتدال في هذين الأمرين، فإن جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين، بل يجب أن يقتصر في حالة الغضب على دفع الضرر. وفي الحسد على الغبطة وهي: إرادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره.

ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضًا صلاحه، فمن ذلك الأمل فبسببه تعمر الدنيا، ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمارة، فإن الخلق أول ما يخلق ضعيف، فلولا أنه يجد آثار قوم أحلوا وعمروا، لم يكن له محل يأوي إليه، ولا آلة ينتفع بها، فكان الأمل سببًا لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين، وهكذا يتوارث إلى يوم الدين، ومنع الإنسان من علم أجله ومبلغ عمره لمصلحة، فإنه لو علم مدة حياته - وكانت قصيرة - لم تهن الحياة، ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمارة أرض ولا لغير ذلك، ولو علمها - وكانت طويلة - لا نهمك في الشهوات

وتعدى الحدود واقتحم المهلكات، ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عما يؤديه إلى إتلافه، فكان في جهله بمدة عمره مصلحة حصول الخوف بتوقع هجوم الموت، ومبادرة صالح الأعمال قبل الفوات.

ثم انظر إلى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها، وأصناف الفواكه مع اختلاف ألوانها وبهجتها، وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها وطيور يلتذ بسماعها، ونقود وجواهر يقتنيها ويصل بها إلى أغراضه ويجدها في مهماته، وعقاقير يستعملها لحفظ صحته، وبهائم لمأكله، ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك وأزهار وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها، وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها، وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهم.

فانظر ماذا ركب الله فيه من العجائب. ومن الحكمة البالغة: اختلاف العباد في تملك ما ينتفع به بنو آدم؛ ليتميز منهم الفقير من الغني، فيكون ذلك سببًا لعمارة هذه الدار ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم في غالب الأحوال. فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبي، فإنه يشتغل لنقص عقله فيما يضر به نفسه، ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالًا عليه، وكم عسى أن يعد العاد من الحكم واللطائف التي يقصد بها قوام العالم وعبادته إلى الأجل المعلوم، وهي مما لا تدخل تحت حد ولا يحصرها عد، ولا يعلم منتهى حقائقها وإحصاء جملتها إلا الحكيم العليم الذي وسعت رحمته وعلمه كل شيء وأحصى كل شيء عددًا.

❁❁❁

خاتمة لهذا الباب

اعلم أن الباري سبحانه وتعالى شَرَّفَ هذا الآدمي وكرمه، فقال سبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾[1].

فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل الذي تنبه به على البهجة وألحقه بسببه بعالم الملائكة، حتى تأهل به لمعرفة بارئه ومبدعه بالنظر في مخلوقاته، واستدلالًا له على معرفة صفاته بما أودعه في نفسه من حكمة وأمانة، قال الله العظيم: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [2].

فكان نظره في نفسه، وفيما أودع الباري سبحانه فيه من العقل الذي يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود بارئه ومدبره وخالقه ومصوره، فإنه ينظر في العقل كيف فيه التدبير وفنون العلم ومستمر المعرفة وبصائر الحكمة والتمييز بين النفع والضر، وهو مع القطع بوجوده لا يرى له شخصًا، ولا يسمع له حسًّا، ولا يحس له مجلسًا، ولا يشم له ريحًا، ولا يدرك له صورةً ولا طعمًا، وهو مع ذلك آمر ومطاع زيادة وراج ومفكر ومشاهد الغيوب ومتوهم للأمور؛ اتسع له ما ضاق عن الأبصار ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه مما بين سماواته وما فوقها، وأرضه وما تحتها، حتى كأنه شاهد أبين من رأي العين فهو موضع الحكمة، ومعدن العلم، كلما ازداد علمًا ازداد سعةً

---

(1) سورة الإسراء: ٧٠

(2) سورة الذاريات: ٢١

وقوةً. يأمر الجوارح بالتحرك، فلا يكاد أن يميز بين الهمة بالحركة، وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما أسبق. وإن كانت الهمة قبل - وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته - عاجز عن معرفة نفسه، إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بنفسه بصفة وهيئة أكثر من الإقرار بأنه مسلم للذي وصفه للعلم به، ومُقِرٌّ بالجهل بنفسه، وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير، ويفرق بين دقائق الصنع، وتجري الأمور على اختلافها. فدلَّ جهله بنفسه وعلمه بما يدبر ويميز أنه مركب مصنوع مصور مدبر مقهور، لأنه مع حكمته واتقاد بصيرته عاجز مهين يريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينساه فيذكره، ويريد أن يسير فيحزن، ويريد أن يغفل فيذكر، ويريد أن يتنبه ويتيقظ فيسهو ويغفل دلالة على أنه مغلوب مقهور - وهو مع ما علم جاهل بحقائق ما علم - ومع ما دبر لا يدري كم مدى مبلغ صوته، ولا كيف خروجه، ولا كيف اتساق حروف كلامه، ولا كم مدى مبلغ نظره، ولا كيف ركب نوره، ولا كيف أدرك الأشخاص، ولا كم قدر قوته، ولا كيف تركبت إرادته وهمته؟ فاستدل بعلمه وجسده عن حقيقة ما علم أنه مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق المريد العليم ﷻ.

ثم إنه خلق في الإنسان الهوى موافقًا لطباعه، فإن استعمل نور العقل فيما أمر به، وَرَدَ مورد السلامة، وفاز غدًا بدار الكرامة، وإن استعمله في أغراض نفسه وهواها، حُجِبَ عن معرفة أمور لا يدركها غيره مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب، وهو الآلة له في عمل الصنائع وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها في ذهنه وتخيله واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة في كل أمة زمان، واستحسان ما يحسن في عوائد العقلاء والفضلاء وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الاعتياد.

فانظر ما شرف هذا الإنسان أن خلق فيه ما يفيده هذه المعارف، فإن الأواني تشرف بشرف ما يوضع فيها.

ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه، شَرُفَتْ بذلك، ولما سبق في علم البارئ سبحانه وإرادته وحكمته بمصير الخلق إلى دار غير هذه الدار، ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به على أحكام تلك الدار، بل كمل لهم سبحانه هذا النور الذي وهبهم إياه بنور الرسالة إليهم، فأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته ومنذرين لأهل معصيته، فمدهم بالوحي وهيأهم لقبوله وتلقيه، فكانت أنوار ما جاء به الوحي من عند الله بالنسبة إلى نور العقل كالشمس بالإضافة إلى نور النجم، فدلوا العباد على مصالح دنياهم فيما لا تستقل بإدراكه عقولهم وأرشدوهم إلى مصالح أخراهم التي لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلا بواسطتهم، وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاءوا به ما أوجب الإذعان والانقياد لصدق أخبارهم، فتمت بذلك نعمة الله على عباده، وظهرت كرامته وثبت حجته عليهم.

فانظر ما أشرف الآدمي ونسله الذين ظهرت منهم هؤلاء الفضلاء الذين هم قابلون لهذه الزيادات الفاضلة، ثم تضافرت أنواع الشرائع التي هي كالشمس، وأنوار العقول التي هي كالنجم. فتمت سعادة من سَبَقَ له من الله الحسنى، وشقاوة من كَذَّبَ ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ثم إن الله تبارك وتعالى مَنَّ على الإنسان بأن خصه برؤيا يراها في منامه، أو في عينه كشبه المنام يمثل له فيها بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه، وهي مبشرة أو منذرة له لما يتوقعه بين يديه، كل ذلك مواهب وكرامات من وجود الله سبحانه، وجعل الله استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سبباً

لصدقها في غالب الأمر ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها، وهي الأمور التي انفرد الله بعلم العاقبة فيها وأطلع على بعض الأمور منها من شاء.



باب في حكمة خلق الطير

قال الله ﷻ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١) .

اعلم - رحمك الله - أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران، ولم يخلق فيه ما يثقله، وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه، فَقَسَّمَ لكل عضو منه ما يناسبه، فإن كان رخواً أو يابسًا أو بين ذلك، انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به، فخلق للطير الرجلين دون اليدين؛ لضرورة مشيه وتنقله، وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه، وجعلها واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض، وهي خف فيه أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه، وجعل جلد ساقيه غليظًا متقنًا جدًّا؛ ليستغني به عن الريش في الحر والبرد.

وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة؛ لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغني عن مواضع فيها الطين والماء، فلو كُسِيَتْ ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه، فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصًا للطيران، وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها؛ إذ لو طالت رجلاه، وقصر عنقه، لم يمكنه الرعي لا في البراري ولا في البحار حتى ينكب على صدره، وكثيرًا ما يعان بطول المنقار أيضًا - مع طول العنق - ليزداد مطلبه

(١) سورة النحل: ٧٩

عليه سهولة، ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه، وخلق صدره وجعل دائرة ملفوفًا مربيًّا على عظم كهيئة نصف دائرة حتى يخرق في الهواء بغير كلفة، وكذلك رءوس أجنحته مدورة، إعانة له على الطيران.

وجعل لكل جنس من الطير منقارًا يناسب رعيه ويصلح لما يتغذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك، فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر، وما قوته اللحم، ومنه عرض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقًا محكمًا، ومنه معتدل اللقط وآكل الخضر، ومنه طويل المنقار للحصر وجعله صلبًا شديدًا شبه العظم وفيه ليونة ما هي في العظم لكثرة الحاجة إلى استعماله وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان، وقَوَّىَ سبحانه أصل الريش، وجعله قصبًا منسوبًا فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران. ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش، وجعل ريشه ووقاية مما يضره من حر أو برد، ومعونة متخللة الهواء للطيران، وخص الأجنحة بأقوى الريش، وأنبته، وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة إليه، وجعل في سائر بدنه ريشًا غيره كسوة ووقاية وجمالًا له، وثبت أصل جميعه؛ لأنه جبيرته وجمله، وجعل في ريشه من الحكمة أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه. فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته، وجعل له منفذًا واحدًا للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته، وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه، فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران يمينًا وشمالا. فكان له بمنزلة رجل السفينة الذي يعدل بها سيرها وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته.

ولما كان طعامه يبتلعه بلعًا بلا مضغ، جعل لبعضه منقارًا صلبًا يقطع به اللحم، ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية، وصار يزدرد ما يأكله صحيحًا وأعين بفضل

حرارة في جوفه تطحن الطعام طحنًا يستغني به عن المضغ وثقل الأسنان، واعتبر ذلك بحب العنب وغيره فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحًا، وينسحق في أجواف الطير. ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد؛ لئلا يثقل عن الطيران، فإنه لو خُلِقَتْ فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها، وتعوق عن النهوض للطيران. أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة؟

انظر إلى من أنزله وألهمه الرقاد على بيضه فيحضنه مدة الحضانة؟ من ألهمه أن يلتقط الحب، فإذا ماع في باطنه غذى به أفراخه وهذا نوع من الطير.

ثم انظر مع هذا كيف احتمل هذه المشقة، وليست له رؤية ولا فكر في عاقبة، ولا له أمل يأمله في أفراخه كما يأمل الإنسان في ولده من العز والرفد وبقاء الذكر. فهل هذا قطعًا إلا إلهام إلهي من فعل الله سبحانه.

انظر كيف ألهم معرفة حمل الأنثى منه بالبيض، فألهموا حينئذ حمل الحشيش وتوطئته في موضع التحضين والولادة لتكون الرطوبة والتوطئة تحفظ البيض ويكون البيض محفوظًا في المهاد الذي يمهدونه ويستحسنونه في حال تحضينه.

انظر إلى الحمام كيف ألهم معرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضينه للبيض حتى يكتشف عن الفرخ ويخرجه، وإن اتفق في البيض فساد بسبب عرق قام وتركه.

ثم انظر إلهامه بما يزق به فرخه فإنه أولًا يزقه بالريح لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها. ثم بعد ذلك يزقه من أول هضم، ثم إذا ماع الغذاء في حوصلته يزقه

به حتى يدرجه يفعل مرارًا حتى يولي حوصلته، فإنه لو أرسله إليه حَبًّا صحيحًا لعجز عن هضمه لضعف جسده.

فانظر إن كان هذا من فعل الطير وحكمته، ثم انظر عند خروج الفرخ من البيضة كيف يسنده إلى جنبه؛ لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به، ومن الطير مما يخلق على هيئة أخرى لحكمة أخرى. ولتعلم أن قدرة الله لا تنحصر في نوع واحد، بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشيء؛ وذلك أن الدجاج ما فيهم أهلية الزق، بل جعلت أفراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة.

ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم، فيعقب هذا صاحبه كأن لهم علمًا بأن عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم.

ثم انظر إلى خلق البيضة وما فيها من الحكم لله، ففيها المح الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق، فبعضه لينشأ منه جسده، وبعضه يغتذي به إلى أن تنشق عنه، وما في ذلك من التدبير المحكم العجيب، وكيف جعل معه غذاءه في بيضة مغلقة تنتقي به إلى حين كماله فيها وخروجه منها.

ثم انظر في حوصلة الطائر، وما في حلقها من التدبير، فإن مسلك طعامه إلى القانصة ضيق لا ينفذ إليه إلا قليلًا قليلًا، فلو كان لا يلتقط حبه حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال الأمر عليه، مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه ما يؤذيه، فصار ما يحتكره احتراسًا لشدة حذره، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليؤدي فيها ما أدرك من الطعام بسرعة، ثم ينفذ إلى القانصة على مهلٍ. وفيها حكمة أخرى، فإن الطير الذي يزق أفراخه يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه.

ثم تأمل ريش الطائر، فإنك تجده منسوجًا نسج الثوب من سلوك رقاق، وفيها من اليبس ما يمسك ما حولها، ومن اللين ما لا ينكسر معه وهي حاوية، قد ألف بعضها إلى بعض، كتأليف الخيط إلى الخيط والشعر إلى الشعر، ثم تجده إذا فتحته - أعني النسيج - ينفتح قليلًا، ولا ينشق ليدخله الريح فتثقله عن طيرانه، وتجد في وسط الريشة عمودًا غليظًا يابسًا مثبتًا قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته، فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء وهي مع صلابته مجوفة ليخف عليه طيرانه.

انظر إلى الطائر الطويل الساقين والحكمة في طولهما أنه يرعى أكثر رعيه في ضحضاح كأنه فوقه مراقب يتأمل ما يدب في الماء، فإذا رأى شيئًا من حاجة خطا خطوًا رفيقًا حتى يتناوله، فلو كان قصير الساقين، لكان حين يخطو إلى الصيد يصل بطنه إلى الماء فيهزه فيذعر منه الصيد فيبعد عنه.

انظر إلى العصافير وغيرها فإنها تطلب رزقها في طول نهارها فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعًا محله، وهو أمر جار على سُنَّةِ اللهِ في خلقه، فإن صلاحهم في السعي في طلب الرزق، فإن الطير لو وجده مسيرًا، أَكَبَّ عليه، ولا يقلع عنه حتى يمتلئ فيثقل عن الطيران، ولا يستطيع رده - أعني قذفه من بطنه - مثل طير الماء الكبير فإنه يأكل السمك، فإذا امتلأ منه وأزعجه مزعج، تقيأه حتى يخف للطيران. وكذلك الناس أيضًا لو وجدوه بلا سعي لتفرغوا إفراغًا يوقعهم في غاية الفساد.

انظر إلى هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا ليلًا، مثل: البوم، والهام، والخفاش، فإن عيشها يتيسر في الجو، وكالبعوض والفراش وشبهه، فإنها منبثة

في هذا الجو، فجعل عيشه في موضع أقرب إليه من الأرض، ولعل نوره لا يعينه أن يلتقط من الأرض، بدليل أنه لا يظهر في نور الشمس إلا مختفيًّا، فأُلْهِمَ أن يعيشَ في الجو من الفراش وغيره.

انظر إلى الخفاش لما خُلِقَ بغير ريش كيف خلق له ما يقوم مقامه وجعل له فم وأسنان وكل ما في البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وأقدره على الطيران؟ فأظهر سبحانه فيه أن قدرته على الطيران لا تقصر على ما خلق له الريش، ولا تنحصر في نوع واحد؛ لأنه خلق هذا النوع، وخلق من السمك جنسًا يطير على وجه البحر مسافة طويلة، ثم ينزل الماء فسبحان القاضي العليم.

انظر إلى الذكر والأنثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضانة، فإذا احتاج أحدهما إلى قوته، ناب الآخر إلى آخر وقت الحضانة، ثم ألهمهما الحرص على الحضانة فلا يطيلان الغيبة على البيض إذا خرجا لنيل القوت حتى أنهما يجتمع في أجوافهما البراز للحرص على الرقاد، فإذا اضطر إلى خروج البراز أخرجه دفعة واحدة.

ثم انظر إلى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض، ويقرب أوان وضعها كيف يطردها وينقرها، ولا يدعها تستقر خارجا عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ لوضعه.

انظر كيف يزق أفراخه ويعطف عليها ما دامت محتاجة إلى الزق حتى إذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها، صارت إذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها.

ثم انظر ما خلق الله تعالى في الكواسر من شدة الطيران حتى لا يسبق له من يطلبه، ومن قوة المخلب وجدته في المنقار والأظفار، فكأن مخلبها مدية للقطع، وكأن مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى يصل ما يحتاجه من قوتها.

انظر إلى طير الماء لما جعل قوته في الماء كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه؟ فجعل ﷻ لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته.



باب في حكمة خلق البهائم

قال الله ﷻ: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ [1].

اعلم – وفقك الله وإيانا – أن الله خلق البهائم لمنافع العباد امتنانًا عليهم كما نبهت على ذلك هذه الآية، فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه، وعصب شديد وعروق شداد، وضَمَّ بعضها إلى بعض، ولم يجعلها لينة رخوة، ولا صلبة كصلابة الحجارة، وجعل ذلك تجلدًا اشتمل على أبدانها كلها لتضبطها وتتقنها؛ لأنها أُرِيدَ منها القوة للعمل والحمل، ثم خلقها سبحانه سميعة بصيرة ليبلغ الإنسان حاجته؛ لأنها لو كانت عمياء صماء، لم ينتفع بها الإنسان، ولا وصل بها إلى شيء من مآربه، ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله لتذل للإنسان، فلا تمتنع عليه إذا أكدَّها عند حاجته إلى إكدادها في الطحن وحمل الأثقال عليها إلى غير ذلك.

وقد علم الله أن بالناس حاجة إلى أعمالها وهم لا يطيقون أعمالها ولا يقدرون عليها، ولو كلف العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم، فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصون بعملها وخلقتهم قابلة لها ولا غنى لهم عنها وتحصيل الفضائل من العلوم والآداب، ولكان ذلك مع إتعابه لأبدانهم يضيق عليهم معايشهم. فكان قضاؤه على هذا وتسخيرها لهم من النعم العظيمة.

---

[1] سورة النحل: ٨

انظر في خلق أصناف من الحيوان وتهييئها لما فيه صلاح كل صنف منها، فبنو آدم لما قدروا أن يكونوا ذوي علاج للصناعات واكتساب العلوم وسائر الفضائل ولا غنى لهم عن البناء والحياكة والتجارة وغير ذلك خُلِقَتْ لهم العقول والأذهان والفكر، وخُلِقَتْ لهم الأكف ذوات الأصابع ليتمكنوا من القبض على الأشياء ومحاولات الصناعات. وآكلات اللحم لما قدر أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وأنياب. وآكلات النبات لما قدر أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد، خلقت لبعضها أظلاف [1] كفتها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى، ولبعضها حوافر مستديرة ذات قعر كأخمص القدمين لتنطبق على الأرض وتتهيأ للحمل والركوب.

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان كيف خلقت ذوات أسنان حداد وأضراس شداد وأفواه واسعة، وأُعِينَتْ بسلاح وأدوات تنال بذلك ما تطلبه؟ فإن ذلك كله صالح للصيد، فلو كانت البهائم التي عيشها النبات ذوات مخالب وأنياب كانت قد أعطيت ما لا تحتاج إليه، لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحم، ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه من السلاح الذي به يصطاد.

فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف الحيوان ما يشاكله وما فيه صلاحه وحياته.

---

(1) الظِّلْفُ: ظُفُرُ كُلِّ مَا اِجْتَرَّ، وَهُوَ ظِلْفُ البَقَرَةِ والشَّاةِ والظَّبْيِ وَمَا أَشْبَهَهَا. (لسان العرب).

انظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف تجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمل كما يحتاج الآدميون، إذ لم يجعل في أمهاتها ما جعل في أمهات البشر من العقل والعلم والرفق في أحوال التربية والقوة عليها بالفكر والأكف والأصابع المهيأة لذلك ولغيره. فلذلك؛ أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها. ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج يدرج ويلقط عقيب خروجها من البيضة، وما كان منها ضعيفًا لا نهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل في الأمهات عطفًا عليها، فصارت تعين الطعام في حواصلها، ثم تَمجه في أفواه فراخها، ولا يزال كذلك حتى ينهض وتستقل، فكل أعطي من اللطف والحكمة بقسط. فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى قوائم الحيوان كيف ينتقل أزواجًا لتتهيأ للمشي، فلو كانت أفرادًا لم تصلح لذلك؛ لأن الماشيَّ منها ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده على ما لم ينقله منها، فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى، وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين، وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسرير، ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه، فجعل ينقل اليمنى من مقدمه على اليسرى من مؤخره، ويعتمد الآخرين من خلاف أيضًا فتثبت على الأرض، ولا تسقط إذا مشى لسرعة التحاقهما فيما بين المشي والاعتماد.

أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن، والفرس مردعًا منها، والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى، وينقاد لصبي صغير، والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرثه، والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأَسِنَّة في

الحروب وقايةً لراكبها، والقطيع من الغنم يرعاها صبي واحد فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها، وربما أعجزت طالبها، وكذلك جميع الحيوان المسخر للإنسان، وما ذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروي. فكان ذلك سببا لتذليلها فلم تلتو على أحد من الناس، وإن أكدها في كثير من الأحوال. وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس وأنكتهم نكاية شديدة عظيمة، ولعسر زجرها ودفعها، ولا سيما إذا اشتدت حاجتها في طلب قوتها، ويشتد خللها. ألا يرى إذا أحجمت عن الخلق وصارت في أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها حتى صارت لا تظهر ولا تنبعث في طلب قوتها في غالب أحوالها إلا ليلًا، فجعلها مع شدة قوتها وعظم غذائها كالخائفة من الإنس؛ بل هي ممنوعة منهم، ولولا ذلك لساورتهم في منازلهم وضيقت عليهم في مساكنهم.

ألا ترى الكلب وهو من بعض السباع كيف سخر في حراسة منزل صاحبه حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل إلى صاحبه ما يؤذيه، ثم إنه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن نفسه، ويألفه حتى يصير معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء، فطبع على هذه الخلال لمنفعة الإنسان في الحراسة والاصطياد. ولما جعله الباري سبحانه حارسًا أمده بسلاح، وهي الأنياب والأظفار واللهث القوي ليذعر به السارق والمريب، وليجتنب المواضع التي يحميها.

ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحًا مثبتًا على قوائم أربع لتمهيد الركوب والحمولة وجعل فرجها بارزًا من ورائها ليتمكن الفحل من ضِرَابِها[1] ، إذ لو كان

---

(1) الضِرَابُ: وَضَرَبَ الفَّحْلُ النَّاقَةَ يَضْرِبُهَا ضِرَابَا: نَكَحَهَا. (لسان العرب).

أسفل باطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها، ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحًا كما يأتي الرجل المرأة، فتأمل هذه الحكمة والتدبير. ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها، فإذا كان وقت الضِرَاب، ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها، فلما لم يخلق في الموضع المخلوق في الأنعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الأمر الذي به دوام التناسل، وذلك من عظيم العبر.

ثم انظر كيف كسيت أجساد البهائم الشعر والوبر ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات، وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفاء، وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره. ولما كانت البهائم لا أذهان لها ولا أكف ولا أصابع تتهيأ للأعمال، كفيت مؤنة ما يضر بها بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج إلى استبدال بها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمي، فإنه ذو فهم وتدبير وأعضاء مهيأة لأعمال ما يقترحه وله في إشغاله بذلك صلاح وفيه حكمة، فإنه خلق على قابلة لفعل الخير والشر وهو إلى فعل الشر أميل إلى فعل الخير، فجعلت الأسباب التي يحصل بها ما هو محتاج إليه ليشتغل بها عما فيه فساده وهلاك دينه، فإنه لو أعطي الكفاية في كل أحواله أهلكه الأشر والبطر، وكان من أعظم الحيوانات فسادًا في الأرض، ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق لينال به السعادة إلى ما فيه شقاوته. ثم إن الآدميَّ مُكَرَّمٌ يتخير من ضروب الملابس ما شاء، فيلبس منها ما شاء، ويخلع منها ما شاء ويتزين بها، ويتجمل، ويتلذذ منها بما يشاء، ويكمل بها زينته وجماله وبهاءه في عين من يصحبه ويحب قربه، ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه، وهذا من باب النعمة عليه والكرامة له بخلاف البهائم؛ فإنها غنية عن هذا كله.

انظر فيما ألهم الله البهائم والوحوش في البراري، فإنها تواري أنفسها كما يواري الناس موتاهم، فما أحس منها بالموت، توارى بنفسه إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت، وإلا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها، فإنك لو طلبت منها شيئًا، لم تجده، وليست قليلة فيخفى أمرها لقلتها، بل لو قال قائل: إنها أكثر من الإنس لم يبعد، لأن الصحارى قد امتلأت من سباع، وضباع، وبقر، وحمير، ووعل، وإبل، وخنازير، وذئاب، وضروب من الهوام والحشرات، وأصناف من الطير، وغير ذلك مما لا يحصى عدده، وهذه الأصناف في كل يوم يخلق منها، ويموت منها، ولا يرى لها رمم موجودة، والذي أجرى الله به عادتها أن تكون في أماكنها، فإذا أحست بالموت أتت إلى مواضعها خفية فتموت فيها.

فانظر هذا الأمر الذي ألهمت له هذه الأصناف في دفن جثثها بما فطرت عليه، وشخص لبني آدم بالفكر والتروي.

تأمل الدواب كيف خلق أعينها شاخصة أمامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطًا، ولا تتردى في حفرة، وإذا قربت من ذلك نفرت منه وأبعدت نفسها عنه، وهي جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه، أليس الذي جبلها على ذلك أراد صلاحها وسلامتها لينتفع بها؟

ثم انظر إلى فمها مشقوقًا إلى أسفل الخطم لتتمكن من نيل العلف والرعي. ولو جعل كفم الإنسان، لم تستطع أن تتناول شيئًا من الأرض وأعينت بالجحفلة لتقصم بها ما قرب منها، فألهمت قصم ما فيه صلاحها وترك ما لا غذاء لها فيه ولا صلاح.

انظر ما كان من البهائم كيف يَمُزُّ الماء في شربه مزًّا، وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما في شربها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكًا يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه، فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الإنسان.

ثم انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته، وكيف خلق كأنه غطاء في طرفه شعر. فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها، ومنها أن ما بين دبرها وطرق بطنها أبدًا يكون فيه وضر يجتمع بسببه الذباب والبعوض ويجتمع أيضًا، على مؤخرها، فأعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها، فصار كأنه مدية في يدها تذب بها وتطرد عنها ما يضرُّ بها، ثم إنها تعطف برأسها فتطرد به ما في مقدمها من الذباب أيضًا. ثم إن الدابة أيضا أعينت بحركة مختصة، وذلك أن الذباب إذا وقع عليها في مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكًا تطرد به الذباب وغيره عنها. وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين.

ومن الحكمة فيه أيضًا أن الدابة تستريح بتحريكه يمنة ويسرة؛ لأنها لما كان قيامها على أربع اشتغلت يداها أيضًا بالحمل لبدنها والتصرف، فجعل لها في تحريك ذنبها منفعة وراحة، وأعينت بسرعة حركته حتى لا يطول ألمها بما يعرض لها. ومن الحكمة فيه أن البهيمة إذا وقعت في بركة أو مهواة أو وحلت في طين أو غيره. فلا تجد شيئًا أهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها، ومن ذلك إذا خيف على حملها أن ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب، أو ليسبقها رأسها فتنكب على وجهها، فيكون مسكها بذنبها في هذه المواضع يعد لها ويعينها على

اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها إلى غير ذلك من مصالح لا يعلمها إلا الحكيم العليم.

انظر إلى مشفر الفيل، وما فيه الحكمة والتدبير، فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف وإيصاله إلى فمه، فلولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئًا في الأرض؛ إذ لم يجعل له عنق يمده كسائر الأنعام، فلما عدم العنق في هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم يمده فيتناول به ما يحتاجه فسبحان اللطيف الخبير.

انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه، ومنخرًا يتنفس منه، وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره، أو يناول من هو راكب عليه.

انظر إلى خلق الزرافة لما كان منشؤها في رياض شاهقة خلق لها عنقًا طويلًا لتدرك قوتها من تلك الأشجار.

تأمل في خلق الثعلب فإنه إذا حفر له بيتًا في الأرض جعل له فوهتين إحداهما: ينصرف منها، والأخرى: يهرب منها إن طلب ويرفق مواضع في الأرض في بيته، فإن طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه في المواضع التي رفقها، فخرج من خير المنافذ وهي المواضع التي تحتها.

انظر ما خلق الله تبارك وتعالى في جبلته لصيانة نفسه.

وجملة القول في الحيوان: أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق، فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق فيه الانقياد والتذلل وجعل قوته النبات، وما جعل منه للحمل جعله هادئ الطبع قليل الغضب منقادًا منفعلًا على صور يتهيأ منه

الحمل، وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نظم خلق فيه هذا القبول للتعليم ليستعين العباد بصيده وحراسته وأعين بآلات قد تقدم ذكرها.

ومن جملة ذلك (الفيل) فإنه ذو فهم مخصوص به، وهو قابل للتأنس والتعلم فيستعان به في الحمل والحروب، ومنها ما له غضب وشر إلا أنه متأنس بالإنسان لمنفعته كالهرة، ومن الطير ما للناس به انتفاع لما فيه من الإلفة والتأنس، فمن ذلك الحمام يألف موضعه فشغل بسببه في الإخبار بسرعة إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وجعله الله ﷻ كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به، ومن ذلك البازي، فإن طباعه تنتقل إلى التأنس، وإن كان في طبعه مبايناً إلا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد. وما خفي من الحكم في خلق الله تعالى أكثر مما علم.



باب في حكمة خلق النحل، والنمل، والعنكبوت، ودود القز، والذُّباب وغير ذلك

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ (١).

انظر إلى النمل وما ألهمت له في احتشادها في جمع قوتها وتعاونهم على ذلك وإعداده لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حر أو برد، وألهمت في تقلب ذلك من الحزم ما لم يكن عند من يعرف العواقب حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما حمله أو جهد به أعانه آخر فيه، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم إلا بالتعاون، ثم إنها ألهمت حفر بيوت في الأرض تبتدئ في ذلك بإخراج ترابها وتقصد إلى الحب الذي منه قوتها، فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض، فمن خلق هذا في جبلتها إلا الرحمن الرحيم. ثم إذا أصاب الحَبَّ بَلَلٌ، أخرجته فنشرته حتى يجف، ثم إنها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض خوفاً من السيل أن يغرقها.

ثم انظر إلى النحل وما ألهمت إليه من العجائب والحكم، فإن الباري سبحانه جعل لها رئيساً تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها، فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر. وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق؛ لأنهما إذا كانا أميرين وسلك كل واحد منهما فَجًّا، افترق النحل خلفهما،

---

(١) سورة الأنعام: ٣٨

ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار فتستحيل في أجوافها عسلًا، فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب، فيه شفاء للناس كما أخبر ﷻ، وفيه غذاء وملاذ للعباد، وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم. فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها وما فضل من ذلك، ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس.

ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها لتوعي فيه العسل وتحفظه، فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح.

فانظر في هذه الذبابة: هل في عملها وقدرتها جمع الشمع مع العسل أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانته في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها؟

ثم انظر لخروجها نهارًا لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها، وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها، ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل، ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدًا عن مواضع العسل، وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه.

انظر إلى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة، فإن الله خلق في جسدها رطوبة تنسج منها بيتا لتسكنه، وشركًا لصيدها فهو مخلوق من جسدها، وجعل الله غذاءها من أقواتها ينصرف إلى تقويم جسدها، وإلى خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنصبه أبدًا، مثل: الشرك، وفي ركن الشرك بيتها وتكون سعة بيتها بحيث يغيب شخصها، وللشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه

ذلك. فإذا أحست أن شيئًا من ذلك وقع في شركها خرجت إليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت إلى بيتها فتقتات بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات، وإن كانت مستغنية في ذلك الوقت شكلته وتركته إلى وقت حاجتها.

فانظر ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها، فبلغت في ذلك ما يبلغه الإنسان بالفكرة والحيلة، كل ذلك لإصلاحها ولنيل قوتها ولتعلم أن الله هو المدبر لهذا.

ثم انظر من العجائب دود القز، وما خلق فيه من الأشياء التي يتحير منها وتذكر الله عند رؤيتها، فإن هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الإنسان ومنافعه، فإن هذا الحيوان الذي يخلق من جسمه الحرير، وذلك أن صورة البزر تحضن حتى إذا حمي عاد دودًا كالذر فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيتغذى منه، فلا يزال يرعى منه حتى يحفر جسمه فينبعث إلى غزل نفسه جوزة الحرير، فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة الحرير ويصير هو جسمًا ميتًا لا حياة فيه.

ثم انظر فإن الباري سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس ببقاء نسله، فعندما ينتهي من غزل الحرير، ويعفى ذلك الجسم، يقلبه الله إلى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على بساط أو غيره، وهو في رأي العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى، فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى، ويقيم لحظة على ظهرها فتحبل لوقتها مثل ذلك البزر الذي حضن أولًا، ثم يطير فيذهب، فلا يبقى بها انتفاع، إذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر.

فانظر من ألهمها الرعي من ذلك الورق حتى يرتب منه، ومن ألهمها إلى غزل أجسادها حريرًا حتى تفنى فيما غزلته، ومن رَبَّى لها أجنحة، وقلب صورتها حتى صارت على هيئة تمكن فيها اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها، ولو بقيت على صورتها الأولى لم يأت منها تناسل ولا هذا الاجتماع.

ثم انظر ما يسره الباري سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعمله من بني آدم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة.

وانظر هذا التسخير العجيب في هذا الحيوان اللطيف، وما أظهر فيه سبحانه من بديع الصنع وعجيب الفعل وعظيم الاعتبار، وما جعل فيه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإعادة العظام الرفات سبحانه لا إله إلا هو العلي العظيم.

ثم انظر الذبابة وما أعينت به في نيل قوتها، فإنها خلقت بأجنحة تسرع بها إلى موضع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما يهلكها، ويضر بها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع وتفضل اثنتين، فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللذين تليهما؛ وذلك لرقة أجنحتها، ولأن عينيها لم يخلق لهما الهداب؛ لأنهما بارزتان عن رأسها، وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببني آدم ويقع عليهم دائمًا وينغص عليه عيشهم ليعرفهم الباري سبحانه هوان الدنيا حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها وهو وجه من وجوه الحكمة عليهم.

تأمل كثيرًا من الحيوان الصغير عندما تلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به، ويبقى على ذلك ساعة، ثم يتحرك ويمشي، وهل ذلك إلا لأن ما يصطاد إذا دلت هيئته على عدم حياته، فإذا كان شبيهًا بالجماد ترك كما تترك سائر الحجارة.

تأمل العقاب عندما يصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر، ولا يجد فيها موضعًا لأكله، فيصعد بها في مخالبه حتى إذا أبعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة، وأرسلها فتهشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها.

فانظر كيف ألهم الطريق في نيل قوته من غير عقل ولا روية.

انظر إلى الغراب لما كان مكروهًا خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه حتى كأنه يعلم الغيب فيمن يقصده، وألهم الاحتيال في إخفاء عشه لصون فراخه، وقل احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره. ولذلك؛ قَلَّ أن يُرَى مجتمعًا مع أنثى، فهذا أبدًا دأبه وحاله مع مَنْ له عقل وفطنة. وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويأكل من دم البعير، ومن أرواث الدواب وقت تبرزها، وإذا وجد شيئًا من قوته وأكل منه وشبع دفن باقيه حتى يعاوده وقتا آخر، فما خلق هذا في طبعه ودبره بهذا التدبير العجيب إلا الله؛ لأنه لا عقل له ولا روية.

انظر إلى الحدأة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها، وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها، فإنها ترى ما تقتات به في الأرض مع علوها في الجو فتنحط نحوه بسرعة، وألهمت معرفة من هو مقبل، ومن هو مدبر، فتخطف ما تخطفه من الناس من ورائهم، ولا تخطف مما يستقبلها؛ لئلا يمنعها المستقبل بيديه، وأعينت لما كان غذاؤها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب كأنها السنانير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه، فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى الحيوان المسمى (حرباء)، وما فيه من التدبير، فإنه خلق بطيئًا في نهضته، وكان لا بُدَّ له من قوته، فخلق على صورة عجيبة، فخلقت عيناه تدور لكل

جهة من غير حركة في جسده ولا قصد إليه ويبقى جامدًا كأنه ليس من الحيوان، ثم أعطي مع السكون وهو أنه يتشكل في لون الشجر التي يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها، ثم إذا قرب منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة خفوق البرق، ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة، وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه. فقد سخر له ما يصطاد به على هذه المسافة، وإذا رأى ما يريعه ويخيفه شُكِّلَ على هيئةٍ، وشكل ينفرد منه من يصطاد من الحيوان ويكرهه.

فانظر هذه الأشياء التي خلقت فيه لأجل قلة نهضته فأعين بها.

انظر إلى الحيوان الذي يسمى (سبع الذباب)، وما أُعْطِيَ من الحيلة والرفق فيما يقتات به، فإنك تجده يحس بالذباب قد وقع قريبًا منه فيركد مليًّا حتى كأنه ميت أو جماد لا حراك به، فإذا أحس أن الذباب قد اطمأن، دَبَّ منه دبيبًا دقيقًا حتى لا ينفره حتى إذا صار قريبًا منه بحيث يناله بوثبة وثب عليه فأخذه، فإذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب، فلا يزال قابضًا عليه حتى يحس ببطلان حركته، فيقبل عليه فيتغذى منه بما يلائمه.

فانظر إلى هذه الحيلة من فعله، أو هي مخلوقة من أجل رزقه؛ فسبحانه البارئ الحكيم.

انظر إلى الذر والبعوض الذي أوهن الله قوتها، وأصغر قدرها، وضرب بها المثل في كتابه، هل تجد فيه نقصًا عما فيه صلاحها من جناح تطير به، ورجل تعتمد عليها، وبصر تقصد به موضعًا تنال فيه قوتها، وآلة لهضم غذائها وإخراج فضلته؟

وانظر هل يمكن أن يعيش من غير قوت؟ وهل يمكن أن يكون القوت في غير محل واحد، وإخراجه فضلته من غير منفذ؟

ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم، فسواها وقدر أعضاءها واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها، وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة، فهي بعوضة صغرت في النظر، ومع هذا فلو أن أهل السماوات والأرض من الملائكة، فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين أرادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزاءها، وحَسَّنَ اعتدال صورتها في أعضائها لما قدروا على ذلك إلا تظاهراً لمنظر العجز منهم على عدم علم حقيقة الخبر، ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دمًّا - وهو الذي منه غذاؤها - ولولا معرفتها به لم تقدم على مصه تطعمه، وكيف همتها التي قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذي ألهمها ربها أن فيه غذاءها، وكيف خرق سمعها، وكيف سمعت حس من يقصدها، وكيف عرفت أن نجاتها في الفرار إذا وَلَّتْ هاربةً ممن قصدها، فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون، ولو جزؤوها، ما ازدادوا في أمرها إلا عمى وبُعْدًا عن المعرفة، فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة، فما ظنك بجميع مخلوقاته ﷻ علوًا كبيرًا؟



باب في حكمة خلق السمك

وما تضمن خلقها من الحكم

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [1].

انظر واعتبر بما خلق الله تعالى في البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال، وما فيه من الآيات البينات، فإنه تعالى لما جعل مسكنه في الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئة؛ لأنه لا يتمشى وهو منغمس في لجة الماء، وخلقت له مكان القوائم أجنحة شداد يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء، وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه متراصة كأنها درع لتتقيه ما يعتدي عليه وما يؤذيه، وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة وهي القشر المتداخل المخلوق على ظاهره خلق له جلدًا غليظًا متقنًا يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره، وخلق له بصرًا وسمعًا وشمًّا ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه.

وانظر كيف أعطي في قعر البحر ما يناسبه في نيل القوت والهرب مما يضره، ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثرة، وجعل أكثر أصنافه يحمل، ولم يجعل الحمل منه مخصوصًا بالأنثى دون الذكر كحيوان البر؛ بل جعل الذكر والأنثى جنسًا واحدًا يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر، فيخلق من جوف واحدة عددًا لا يُحصى، وذلك من كل برزة حوتًا من الجنس، ومن جنس آخر يخلق في الأنهار وغيرها بغير توالد فيخلق منها

---

[1] سورة النحل: ١٤

أعدادًا لا تحصر دفعة واحدة، ومنه صنف يتوالد بالذكر والأنثى، وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاة والتمساح وما شاكلهما فيتولد منهما بيض، فإذا فقَّس البيض بحرارة الشمس، خرج من كل بيضة واحد من الجنس. ولما علم الله سبحانه وتعالى أن السمك في البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره، ألقى الروح في بزر جميعه عند ما يولد فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر إلى أحد في كمال خلقه.

فانظر هذه الحكمة واللطف حيث لم يمكن حضانته في البحر ولا تربيته ولا معونته البتة جعله مستقلًا بنفسه مستغنيًا عن ذلك كله، ثم إن الله سبحانه كَثَّرَه، لأن منه قوت جنسه، وقوتًا لبني آدم والطير، فلذلك كان كثيرًا.

ثم انظر إلى سرعة حركته، وإن لم تكن له آلة كغيره من الحيوان.

وانظر إلى حركة ذنبه وانقسامه، وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل السفينة برجلها في سيرها، وخُلِقَتْ أرياشه ألواحًا من جانبيه ليعتدل بهما أيضًا في سيره فهو بمنزلة المركب.

وانظر إلى عظامه كيف خُلِقَتْ مثل العمد يُبنى عليها، ففي كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو، فهو كإنشاء المركب يمتد العظم الجافي الذي هو قوته، ويخرج من أضلاع إلى مراقي البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج إليه من الأمر وبه قوامه.

وانظر إلى ما كان منه كاسرًا كيف أعين على نيل قوته لصلابة اللحم وقوة النهضة وكثرة الأسنان حتى أنه لكثر أسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ.

انظر إلى ما خلق الله في البحر ضعيفًا قليل الحركة، مثل: أصناف الصدف، والحلزون، كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه، وجعل له بيتًا وسكًا، وجعل ما يولي جسده ناعمًا أنعم ما يكون، وربما ضر ببيت بعض أصناف الحلزون حتى لا يكون فيه مطمع البتة، وأصناف منه خلقت في محائز مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها، فجعل الله لها من الجبال والحجارة مغطى، وجعل لها أسبابًا تلتصق بها في الجبل فلا يستطاع إخراجها إلا بغاية الجهد، وجعل لها قوتًا من رطوبة الجبل تتأتى حياتها بذلك.

وأما الحلزون الذي بينه كأنه كوكب فإنه يخرج رأسه يرعى، فإذا أحس بما يؤذيه أدخل رأسه في بيته وختم عليه بطابع صلب يقرب من صلابة بيته، فيغيب أثره بالجملة.

فانظر هذا اللطف، وأن الله لم يهمل شيئًا. واعلم أن الله حافظ لما في البحار وما في الآكام والجبال؛ فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وانظر إلى أنواع من السمك يرعى قرب البر الصغير منها والجًا في الأعماق، وخلق الله في جوفه صبغًا كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضلة غذائه كما يخلق اللبن في الضرع، فإذا أحس ما يؤذيه، أخرج من جوفه ما يعكر موضعه، ثم يذهب في الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغيير الماء فعل الله ذلك له وقاية لنفسه، وفعل فيه مصالح أخرى لا يعلمها إلا خالقها.

انظر إلى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة، مثل: أجنحة الخفاش ينتقل بها من موضع إلى موضع في الهواء من وجه الماء يظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر.

انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف وكثيرًا ما يكون في الأنهار، وجعل الله فيه خاصية تصونه إذا اقتربت منه يد من يأخذه وفيه الروح تخدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب.

فلو مُلِئَتْ الكتب بعجائب حكم الله في خَلْقٍ واحدٍ لامتلأت الكتب، وعجز البشر عن استكمالها وما هو المذكور في كل نوع تنبيه يشير إلى أمر عظيم.



باب في حكمة خلق النبات

وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [1].

انظر - وفقك الله وسددك - إلى ما على وجه الأرض من النبات، وما في نظره من النعم في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر الأرض.

ثم انظر إلى جعل البارئ فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تُحصى، وخلق فيه الحب والنوى مخلوقًا لحفظ أنواع النبات، وجعل الثمار للغذاء والتفكه والإتيان منها للعلف والرعي، والحطب للوقود، والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن، ولغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها، والورق والأزهار والأصول والعروق والفروع والصموغ لضروب من المصالح لا تحصى. أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض، ولم يكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها ما كان يحصل من الخلل في عدم الأخشاب والحطب والإتيان بالعلف وسائر المنافع، وإن وجد الغذاء بالثمرات والتفكه بها.

---

(1) سورة النمل: ٦٠

ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل، والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الاقتيات، وما فضل ادخر للأمور المهمة والزراعات، وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة، فأعطى أهلها من البذر ما يبذرونه، وفضلة يتقوتون بها إلى إدراك زرعهم. فهذه هي الحكمة التي أعم الله بها البلاد وأصلح بها العباد. وكذلك الشجر والنخل يزكو وتتضاعف ثمراتها حتى تكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه في مآربهم، ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه، ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلف.

تأمل في هذه الحبوب، فإنها تخرج في أوعية تشبه الخرائط لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم كما تخلق البشيمة على الجنين، فأما البزر وما أشبه من الحبوب، فإنه يخرج من قشور صلبة على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير.

فانظر كيف حصنت الحبوب بهذه الحصون وحجبت؛ لئلا يتمكن الطير منها فيصيب بها، وإن كان يناله منها قوته إلا أن حاجة الآدمي أشد وأولى.

تأمل الحكمة في خلق الشجر، وأصناف النبات، فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل إليها غذاءها جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتجذب الماء من الأرض، فتتغذى بها أصولها وما علا منها من الأغصان والأوراق والثمار، فصارت الأرض كالأم المربية لها، وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها، وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان من أمهاتها.

ألم تر إلى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصته فلا يسقط ولا يميل، فهكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب وتمسكه وتقيمه، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية، لا سيما في الرياح العاصفة.

فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة، واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته.

وتأمل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها، ومنها دقائق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجًا دقيقًا عجيبًا، لو كان مما يصنع بأيدي البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة، وكان يحتاج فيه إلى آلات وطول علاج.

فانظر كيف يخرج منه في المدة القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة ولا حركة إلا قدرة البارئ وإرادته وحكمه.

ثم انظر تلك العروق كيف تتخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل إليه المادة وهي بمنزلة العروق المبثوثة في بدن الإنسان لتوصل الغذاء إلى كل عضو منه، وأما ما غلظ من العروق فإنها تمسك الورق بصلابتها وقوتها لئلا ينتهك ويتمزق.

ثم انظر إلى العجم والنوى والعلة فيه، فإنه جُعِلَ في جوف الثمرة ليقوم مقامه إذا عدم ما يغرس أو عاقه سبب، فصار ذلك كالشيء النفيس الذي يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة إليه، فإن حدث على الذي في بعض المواضع من

حادث وجد منه في موضع آخر، ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها، ولولاه لسرحت وسرح الفساد إليها قبل إدراكها، وفي بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح.

ثم انظر إلى خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة والهيئة التي تخرج عليها، وما في ذلك من الطعم واللذة والاستمتاع للعباد.

ثم تأمل خلق الحب والنوى، وما أودع فيه من قوة وعجائب كالمودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان، وهو سر لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه، وما علم من ذلك يطول شرحه.

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابة وخلقت في ظاهره قشرة حتى أنه بسبب ذلك إن سقط في تراب أو غيره لا يفسد سريعًا، وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظًا، فصار قشره الخارج حافظًا لما في باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه، وعند ما يوضع في الأرض ويسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء، وكلما ازداد غصنًا ازداد عرقًا تتقوى به أصل الشجرة، وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فهي كذلك إذ يتم غصنها قوتها فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار بالنقل، أو بغيره، ويصعد الماء في جذورها إلى أعالي الشجرة فيقسمه الله سبحانه بالقسط وميزان الحق، فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشتبكة في الأوراق لاتصال الغذاء إلى جوانب الورق ما يليق بغذائها، وللثمار غذاء صالح لها، وللأقماع واللِّحَا والأزهار غذاء صالح لكل من ذلك ما يليق

به ويصلحه، فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها.

ثم انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقًا لخروج الثمار، لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء، فكانت الأوراق ساترة لها، وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المن والعفن وغير ذلك من الفساد.

ثم انظر كيف رتب البارئ سبحانه الأشجار والثمار والأزهار، وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح. فأشكالها ما بين طويل وقصير وجليل وحقير، وألوانها ما بين أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصافٍ ومتوسط، وطعومها ما بين حلو وحامض ومز وتفه ومر، وروائحها إلى عطرات لذيذات مختلفات. وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدور ويكشف للمتأمل منه كل مستور.

فانظر ما أودع البارئ سبحانه فيها من السر عند النظر إليها، فإنها تجلي عن القلوب درنها عند مشاهدتها وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها، وأودع الله سبحانه فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير. فمنها ما تقوى به القلوب، ومنها أغذية تحفظ الحياة، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها، وخلق فيها بزورًا لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها.

انظر وتأمل ما في قوله ﷻ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ۝٢٠﴾ [1]. فأخرج سبحانه فيما بين الحجر والماء زيتًا صافيًا لذيذًا نافعًا كما أخرج اللبن من بين فرث ودم، ومن أخرج من النخل شرابًا عسلًا مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس. ولو جمعت هذه الأشياء في مستقر لكانت مثل الأنهار، وكل ذلك لمنافع العباد.

فانظر ما فيه من العبرة لذوي الأفكار.

ثم انظر إلى الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة، وكيف قسم البارئ في غذاء النخلة، فقسم للجذر ما يصلح لها وللجريد، وما فيه من السل ما يصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق بها، وكذلك الليف الحافظ للأصول مع الثمرة، وجعل الثمرة لما كانت ضعيفة في أول أمرها متراصة متراكمة بعضها فوق بعض مجموعة في غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها حتى إذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء، فشق عنها غلافها على التدريج، وهو الذي كان حافظًا لها، فيصير يفترق شيئًا بعد شيء على قدر ما تحتمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكمل قوتها، فتظهر جميعها حتى ما يضر بها ما يلقاها من حر وبرد، ثم تراها في النضج والطيب إلى بلوغ الغاية المقصودة منها فيلتذ حينئذ بأكلها ويمكن الانتفاع بادخارها، وتصرف في المآرب التي هيئت لها، واعتبر ذلك في جميع الأشجار، فإنك ترى فيها من أسباب الحفظ ولطائف الصنع ما يعتبر به كل ذي فهم ولب. فمن ذلك خلق الرمانة، وما فيها من غرائب التدبير، فإنك ترى فيها شحمًا مركومًا في نواصيها

---

(1) سورة المؤمنين: ٢٠

غليظ الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال في تلوينه أو البناء الذي وسع أسفله للاستقرار، ورقق أعلاه حتى صار مرصوفاً رصفًا كأنه منضد بالأيدي؛ بل تعجز الأيدي عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور، وتراه مقسومًا أقسامًا، وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية، وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله. ومن حكمة هذه الصنعة أن حَبَّها لو كان حشوها منه صرفًا بغير حواجز، لم يمد بعضه بعضًا في الغذاء، فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء، ألا ترى أصول الحب كيف هي مركوزة في ذلك الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل إلى الحب غذاءها، وإلى حبة حبة غذاءها، ومن رقها وضعفها لا تكدر على الأقل ولا تعرف بها.

ثم انظر ما يصير من الحلاوة في الحب من أصول مرة شديدة المرارة قابضة، ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه على الاضطراب وتحفظه، ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات، فإن هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات وهو ما بين غذاء ودواء، وتدعو الحاجة إليه في غير زمانه الذي يجنى فيه من شجرة لحفظ على هذه الصفة لذلك.

انظر إلى عود الرمانة الذي هي متعلقة به كيف خلق مثبتاً متقنًا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية المحتاج إليها وهي من الثمرة المختصة بالإنسان دون غيره من الحيوان.

انظر إلى النبات الممتد على وجه الأرض، مثل: البطيخ، واليقطين، وما أشبه ذلك، وما فيه من التدبير، فإنه لما كان عود هذا النبات رقيقًا ريانًا ذا احتياج إلى الماء لا ينبت إلا به جعل ما ينبت به منبسطًا على وجه الأرض، فلو كان منتصباً قائمًا كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها، فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غاياتها، فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغاية وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة والسقي بمدها.

وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق إلا في الزمن الصالح لها ولمن تناولها، فهي له معونة عند الحاجة إليها، ولو أتت في زمان البرد لنفرت النفوس عنها ولأضرت بأكثر من يأكلها.

ثم انظر إلى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح خلق فيها الذكر الذي تحتاج إليه لذلك حتى صار الذكر في النخل كأنه الذكر في الحيوان، وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع.

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة، فواحد يفور في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة، وآخر لإخراج المرة السوداء، وآخر للبلغم، وآخر للصفراء، وآخر لتصريف الريح، وآخر لشد البطن في الطبيعة، وآخر للإسهال، وآخر للقيء، وآخر لروائحه، وآخر للمرضى والضعفاء، وكل ذلك من الماء، فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير.



باب ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب

قال الله العظيم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾[3].

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق، وعجائب الصنع، وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات، وبراهين واضحة، ودلائل دالات على جلال بارئها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته، فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك - وهي نفسك - رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه.

ثم إنك إذا نظرت إلى مستقرك - وهي الأرض - وأجلت فكرك فيها وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات، وما أحيط بها من بحار زاخرات، وما جرى فيها من الأنهار، وما انبث فيها من أصناف النباتات والأشجار، وما بث فيها من الدواب إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب.

---

(1) سورة الإسراء: ٤٤

(2) سورة الشورى: ٥

(3) سورة الرعد: ١٣

ثم إذا نظرت إلى سعتها وبعد أكنافها، وعلمت عجز الخلائق عن الإحاطة بجميع جهاتها وأطرافها، ثم إذا نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الحق العظيم إلى السماء، وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وما ذكره النظَّار من أن الشمس في قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفًا وستين جزءًا، وأن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة، ثم إنك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوتها السماوات وهي مركوزة فيها.

ففكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها، ثم انظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء الجامعة لذلك في حدقة عينك مع صغرها، وبهذا تعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتقائه، ولأجل البُعد ترى هذه النيرات صغيرة في رأي العين.

ثم انظر إلى عظم حركتها وأنت لا تحس بها ولا تدركها لبُعدها، ثم إنك لا تشك أن الفلك يسير في لحظة قدر الأرض مائة مرة وأكثر من ذلك وأنت غافل عن ذلك.

ثم فكر في عِظَمِ قدر هذه الأشياء، واسمع قسم الرب سبحانه بها في مواضع من الكتاب العزيز، فقال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾ (1)، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾ (2)، وقال: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ

(1) سورة البروج: ١

(2) سورة الطارق: ١، ٢، ٣

بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ (١) إلى غير ذلك من الآي، ثم ترق بنظرك إلى ما حواه العالم العلوي من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم، وما أخبر به جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن إسرافيل عليه السلام، يقول جبريل: فكيف لو رأيت إسرافيل، وإن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه لفي تخوم الأرض السفلى، وأعظم من هذا كله قوله ﷻ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (٢)، فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم؟ فارفع نظرك إلى البارئ العظيم، واستدل بهذا الخلق العظيم على قدر هذا الخالق العظيم، وعلى جلاله وقدرته وعلمه، ونفوذ مشيئته وإتقان حكمته في بريته.

وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تُقِلّه، ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته، فمن نظر في ملكوت السماوات والأرض ونظر في ذلك بعقله ولبه، استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره، وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل. وكلما رَدَّدَ العقلُ الموفقُ النظرَ والتفكرَ في عجائبِ الصنعِ وبدائعِ الخلقِ، ازدادَ معرفةً ويقيناً وإذعاناً لبارئه وتعظيماً. ثم الخلق في ذلك متفاوتون، فكل مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية. وأعظم شيء موصل إلى هذه الفوائد المشار إليها تلاوة الكتاب العزيز، وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه.

فهذا هو باب المعرفة بالله واليقين بما عند الله.

---

(١) سورة الواقعة: ٧٥، ٧٦

(٢) سورة البقرة: ٢٥٥

ثم انظر وتأمل ما نشير إليه، فإنك علمت على الجملة أن رسول الله ﷺ أُسْرِيَ به إلى أن بلغ المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى، واطلع على ملكوت ربه، وتحقق أمر الآخرة والأولى، ودنا من ربه حتى كان كقاب قوسين أو أدنى. فما ظنك بعلم من شرف بهذا المعنى ثم أمر بأن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (1). وعلمك بمعرفته، ومَنَّ عليك بنور هدايته، واستعملنا وإياك بطاعته، وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنّه وكرمه وجوده إنه ولي ذلك.



[انتهت رسالة بداية الهداية]

(1) سورة طه: ١١٤

■■ الرحلة ٦ ■■

٦

قواعد العقائد في التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

(خطبة الرسالة)

الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد، ذي العرش المجيد والبطش الشديد، الهادي صفوة العبيد، إلى المنهج الرشيد، والمسلك السديد، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد، بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى، واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد، المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، المعرف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له، صمد لا ضد له، منفرد لا نِدَّ له، وأنه واحد قديم لا أول له، أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفًا بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال، بل ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ (1).

❁❁❁

(1) سورة الحديد: ٣

﴿التنزيه﴾

وهو ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير، ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر، ولا تحله الجواهر، ولا بعرض، ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجودًا، ولا يماثله موجود، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ (١)، ولا هو مثل شيء. وأنه لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السماوات. وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده استواءً منزهًا عن المماسة والاستقرار، والتمكين والحلول والانتقال. لا يحمله العرش؛ بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش والسماء، وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربًا إلى العرش والسماء، كما لا تزيده بُعدًا عن الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧﴾ (٢)، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام، وأنه لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء. تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان. وأنه بائن عن خلقه بصفاته، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه ذاته، وأنه مقدس عن التغير والانتقال، لا تحله الحوادث ولا

---

(١) سورة الشورى: ١١

(٢) سورة سبأ: ٤٧

تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت جلاله منزهًا عن الزوال به، وفي صفات كماله مستغنيًا عن زيادة الاستكمال. وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول؛ مرئي الذات بالأبصار نعمةً منه ولطفًا بالأبرار في دار القرار، وإتمام للنِعَمِ بالنظر إلى وجهه الكريم.



﴿الحياة والقدرة﴾

وأنه تعالى حي قادر، جبار قاهر، لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سِنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت، له السلطان والقهر والخلق والأمر، والسماوات مطويات بيمينه، والخلائق مقهورون في قبضته. وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع. خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قبضته مقدور، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته.



﴿العلم﴾

وأنه عالم بجميع المعلومات؛ محيط علمه بما يجري في تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر

في جو الهواء، ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفًا به في أزل الآزال، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال.

❁❁❁



﴿الإرادة﴾

وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات، فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسران، زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر، بل هو المبدئ المعيد الفعال لما يريد، لا رادّ لأمره ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد من معصيته إلا بتوفيقه ورحمته. ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته، فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك. وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته، لم يزل كذلك موصوفًا بها، مريدًا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير. دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان؛ فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.

❁❁❁

﴿السمع والبصر﴾

وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي. ولا يغيب عن بصره مرئي وإن دَقَّ. ولا يحجب سمعه بُعد، ولا يدفع رؤيته ظلام. يرى من غير حدقة وأجفان، ويسمع من غير أصمخة وآذان، كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة؛ إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.



﴿الكلام﴾

وأنه تعالى متكلم آمر، ناهٍ واعد، متوعد بكلام أزلي قديم قائم بذاته، لا يشبه كلام الخلق، فليس بصوت يحدُثُ من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان. وأن القرءان والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام. وأن القرءان مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، محفوظ في القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وأن موسى ﷺ سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض. وإذا كانت له هذه الصفات، كان حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا سميعًا بصيرًا، متكلمًا بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات.

❁❁❁

﴿الأفعال﴾

وأنه ﷻ لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله، وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها، وأنه حكيم في أفعاله، عادل في أقضيته، لا يقاس عدله بعدل العباد؛ إذ العبد يُتَصَوَّر منه الظلم بتصرفه في ملك غيره. ولا يتصور الظلم من الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكًا حتى يكون تصرفه فيه ظلمًا، فكل ما سواه من إنس، وجن، وشيطان، وملك، وسماء، وأرض، وحيوان، ونبات، وجوهر، وعرض، ومُدْرَك، ومحسوس: حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعًا، وأنشأه إنشاءً بعد أن لم يكن شيئًا؛ إذ كان في الأزل موجودًا وحده، ولم يكن معه غيره، فأحدث الخلق بعد إظهارًا لقدرته، وتحقيقًا لما سبق من إرادته، ولما حق في الأزل من كلمته، لا لافتقاره إليه وحاجته. وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان، إذا كان قادرًا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب، ولو فعل ذلك لكان منه عدلًا، ولم يكن قبيحًا ولا ظلمًا. وأنه ﷻ يثيب عباده على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له؛ إذ لا يجب عليه فعل، ولا يُتَصَوَّر منه ظلم، ولا يجب لأحد عليه حق، وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه لا بمجرد العقل، ولكنه بعث الرسل، وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة، فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به.

❁❁❁

﴿الشهادة للرسل بالرسالة﴾

وأنه بعث النبي الأمي القرشي مُحَمَّدًا ﷺ برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرر منها، وفضله على سائر الأنبياء، وجعله سيد البشر. ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد، وهو قول: (**لا إله إلا الله**) ما لم يقترن بها شهادة الرسول، وهو قولك: (**محمد رسول الله**)، فألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من الدنيا والآخرة. وأنه لا يُتَقَبَّلُ إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر عنه بعد الموت، وأوله: سؤال منكر ونكير، وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سويًّا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومَنْ نبيك؟ وهما فتانا القبر، وسؤالهما أول فتنة للقبر بعد الموت. وأن يؤمن بعذاب القبر، وأنه حق، وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء. وأنه يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان، وصفته في العِظَمِ أنه مثل طباق السماوات والأرضين توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقًا لتمام العدل، وتوضع صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور، فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله، وتطرح صحائف السيئات في كفة الظلمة، فيخف بها الميزان بعدل الله. وأن يؤمن بأن الصراط حق، وهو جسر ممدود على متن جهنم أَحَدُّ من السيف، وأَدَقُّ من الشعرة، تَزِلُّ عليه أقدام الكافرين بحكم الله تعالى، فيهوي بهم إلى النار، وتُثَبَّتُ عليه أقدام المؤمنين بفضل الله، فيساقون إلى دار القرار. وأن يؤمن بالحوض المورود: حوض محمد ﷺ يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط. مَنْ شَرِبَ منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، عرضه مسيرة شهر، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن وأحلى من العسل. حوله أباريق عددها بعددِ

نجوم السماء. فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر. وأن يؤمن بالحساب، وتفاوت الناس فيه إلى مُنَاقِشٍ في الحساب، وإلى مُسَامَحٍ فيه، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب، وهم المقربون، فيسأل من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين، ويسأل المبتدعة عن السُّنة. ويسأل المسلمين عن الأعمال. ويؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى، فلا يخلد في النارِ مُوَحِّدٌ. وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء، ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزلته، ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أُخْرِجَ بفضل الله ﷻ، ولا يخلد في النار مؤمن؛ بل يخرج منها مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان. وأن يعتقد فضل الصحابة ﷺ وترتيبهم، وأن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وأن يُحْسِنَ الظَّنَّ بجميع الصحابة، ويثني عليهم كما أثنى الله ﷻ ورسوله ﷺ عليهم أجمعين، فكل ذلك مما وردتْ به الأخبار، وشهدتْ به الآثار، فمن اعتقد جميع ذلك مُوقنًا به، كان من أهل الحق وعصابة السُّنة، وفَارَقَ رهط الضلال وحزب البدعة.

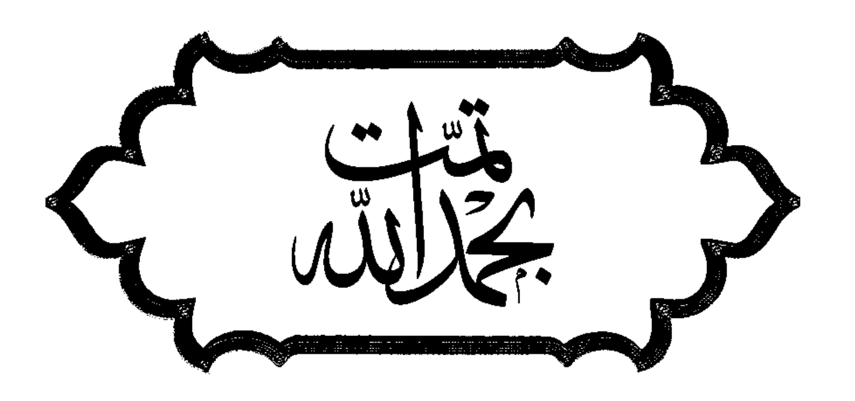
فنسأل الله تعالى كمال اليقين، والثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين؛ إنه أرحم الراحمين، وصَلَّىَ الله على سيدنا محمد وعلى كل عبدٍ مُصطفى.

❁❁❁

[انتهت رسالة قواعد العقائد في التوحيد]

فهرس المحتويات




تمت بحمد الله